

الشرح

لفضيلة الشيخ العلامة

الدكتور/ صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

اعتنى به وأشرف على طبعه

عادل بن محمد مرسي رفاعي

غفر الله له ولوالديه ولأهل بيته ولمشايخه





الشرح
لفضيلة الشيخ العلامة
الدكتور صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

اعتنى به وأشرف على طبعه
عادل بن محمد مرسي رفاعي
غفر الله له ولوالديه ولأهل بيته ولمشايخه



فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الفوزان ، صالح بن فوزان

شرح حديث جبريل عليه السلام. / صالح بن فوزان الفوزان ؛ عادل محمد مرسي رفاعي . - الرياض ، ١٤٢٩ هـ

.. ص ؛ .. سم

ردمك : ٠-٩٧٨-٦٠٣-٠٠-٠٥٩٧-٠

١ - الاسلام ٢ - الايمان (الاسلام) أ. رفاعي ، عادل محمد مرسي (محقق) ب. العنوان

ديوي ٢٤٠ ١٤٢٩/٢٩٣٣

رقم الإيداع : ١٤٢٩/٢٩٣٣

ردمك : ٠-٩٧٨-٦٠٣-٠٠-٠٥٩٧-٠

الإصدار الثاني

الطبعة الثانية

١٤٣٤هـ/٢٠١٣م



جمهورية مصر العربية ٠١١٦٨٩٩١٠٠(٠٠٢) - ٠١٦٩٠٥٧٥٧٣(٠٠٢)

الإسكندرية - ١٧٥ ش طيبة سبورتنج بجوار مسجد الصديق

هاتف ٠٣/٥٤٦١٥٨٣ - محمول ٠١١٦٨٣٣٥٥١

القاهرة - ٣٣ ش محمد عبده - خلف الجامع الأزهر الشريف

محمول /٠١١٦٨٣٣٥٥٠

dar - alhijaz @ hotmail.com


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وبعد: فقد أذنت للأخ عادل مرسي بطباعة شرح حديث جبريل لتعم الفائدة منه - إن شاء الله - ونفع الله الجميع

كتبه

صالح بن فوزان الفوزان

٢٢/٥/١٤٢٩هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَةُ النَّاشِرِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاه إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَبَعْدُ:

فَهَذَا شَرْحُ حَدِيثِ جِبْرِيلَ عليه السلام، قَامَ بِشَرْحِهِ شَيْخُنَا وَوَالِدُنَا الْعَلَّامَةُ الشَّيْخُ:

صَالِحُ بْنُ فَوزَانَ بْنِ عَبْدِ اللهِ الفَوْزَانِ

غَفَرَ اللهُ لَهُ وَلِوالِدَيْهِ وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ

وَكَانَ هَذَا الشَّرْحُ فِي دروسٍ أَلْقَاهَا فَضِيلَةُ الشَّيْخِ أَثْنَاءَ شَرْحِهِ عَلَى الْأَرْبَعِيْنَ النَّوَوِيَةِ، وَقَدْ أَفْرَدْتُهُ هُنَا؛ لِمَا فِيْهِ مِنَ الْفَوَائِدِ الْعِلْمِيَّةِ الَّتِي يَحْتَاجُهَا طُلَّابُ الْعِلْمِ، وَهُوَ حَدِيْثٌ عَظِيْمٌ؛ حَتَّى سَمَّاهُ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: «أُمَّ السُّنَّةِ»(١)، كَمَا فِيْ الْقُرْآنِ: «أُمُّ الْقُرْآنِ»؛ لِأَنَّ جَمِيْعَ السُّنَّةِ تَعُوْدُ إِلَيْهِ؛ فَفِيْهِ بَيَانُ

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١/ ١٢٥): (قال القرطبي هذا الحديث: يصلح أن يقال له: أم السنة؛ لما تضمنه من جمل علم السنة. وقال الطيبي لهذه النكتة: استفتح به البغوي كتابيه المصابيح، وشرح السنة، اقتداء بالقرآن في افتتاحه بالفاتحة؛ لأنها تضمنت علوم القرآن إجمالاً. وقال القاضي عياض: اشتمل هذا الحديث على جميع وظائف العبادات الظاهرة والباطنة: من عقود الإيمان ابتداء وحالا ومآلا، ومن أعمال الجوارح، ومن إخلاص السرائر، والتحفظ من آفات الأعمال، حتى إن علوم الشريعة كلها راجعة إليه ومتشعبة منه). ا.هـ. وانظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١/ ١٥٨ - ١٦٠)، وجامع العلوم والحكم (ص٩٧)، وشرح الأربعين لابن دقيق العيد (ص٣١)، وعمدة القاري (١/ ٢٩١).

الْعَقِيْدَةِ، وَالْعَقِيْدَةُ مَبْنِيَّةٌ عَلَى أَرْكَانِ الْإِيْمَانِ السِّتَّةِ، وَفِيْهِ بَيَانُ الشَّرِيْعَةِ، وَذَلِكَ بِذِكْرِ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ الخَمْسَةِ، وَفِيْهِ ذِكْرُ الْغَيْبِيَاتِ وَالْأَمَارَاتِ؛ بَلْ قَبْلَ ذَلِكَ فِيْهِ ذِكْرُ آدَابِ السُّلُوْكِ وَالْعِبَادَةِ، وَفِيْهِ صَلَاحُ تَوَجُّهِ الْقَلْبِ وَالْوَجْهِ إِلَى اللهِ ﷻ بِذِكْرِ الْإِحْسَانِ، وَفِيْهِ ذِكْرُ السَّاعَةِ وَأَمَارَاتِهَا، وَهَذَا نَوْعٌ مِنْ ذِكْرِ الْأُمُوْرِ الْغَيْبِيَّةِ وَدَلَالَاتِ ذَلِكَ.

فَهَذَا الْحَدِيْثُ يَعُوْدُ إِلَيْهِ جُلُّ السُّنَّةِ، وَجَمِيْعُ أُصُوْلِ الْأَحَادِيْثِ النَّبَوِيَّةِ فِي هَذَا الْحَدِيْثِ.

فَأَسْأَلُ اللهَ ﷻ أَنْ يُجْزِلَ لِشَيْخِنَا المثُوبَةَ والأَجْرَ، وأَنْ يَجْعَلَهُ إِمَامَ هُدَىً ورَشَادٍ، وأَنْ يُعِزَّ بِهِ وَيُصْلِحَ، كَمَا أَسْأَلُهُ - سُبْحَانَهُ - أَنْ يَغْفِرَ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ ولِأَهْلِ بَيْتِهِ وَمَشَايِخِهِ، وَأَنْ يَحْشُرَهُ تَحْتَ لِوَاءِ نَبِيِّهِ الأَمِينِ، وَفِي زُمْرَةِ السَّابِقِينَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا، وَأَنْ يَجْعَلَ لِي مِنَ الخَيْرِ نَصِيبًا.

وَصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ، وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا مَزِيدًا.

وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ.

عَادِلُ بْنُ مُحمَّدٍ مُرْسِيّ رِفَاعِيّ
الرِّيَاضُ

فَجْرَ الأحد: ٢٠/ ٥/ ١٤٢٩هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

عَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ ﷺ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ لا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ وَلا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلى النَّبِيِّ ﷺ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الإِسْلامُ: أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ البَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلا، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ، قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَاليَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ، قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ، قَالَ: مَا المَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا، قَالَ: أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الحُفَاةَ العُرَاةَ العَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي البُنْيَانِ، قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ، فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ لِي: يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟ قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ[(١)].

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاه إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَبَعْدُ:

هَذَا الحَدِيثُ حَدِيثٌ عَظِيمٌ بَيَّنَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَرْكَانَ الإِسْلَامِ،

---

(١) أخرجه مسلم (٨).

وَأَرْكَانَ الإِيمانِ، وَبَيَّنَ فِيهِ الإِحْسَانَ، وَبَيَّنَ فِيهِ شَيْئًا مِنْ عَلَامَاتِ السَّاعَةِ، وَهَذَا الحَدِيثُ بَيَّنَ الدِّينَ كُلَّهُ، وَأَنَّ الدِّينَ مَرَاتِبُ، وَالنَّاسُ لَيْسُوا عَلَى حَدٍّ سَوَاءٍ فِي الدِّينِ، فَمِنْهُمْ: المسْلِمُ، ثُمَّ المؤْمِنُ، ثُمَّ المحْسِنُ، وَهَذِهِ مَرَاتِبُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، وَبَعْضُهَا أَوْسَعُ مِنْ بَعْضٍ، إِلَّا أَنَّهُ لَابُدَّ مِنْ أَحَدِ هَذِهِ المَرَاتِبِ حَسَبَ الاسْتِطَاعَةِ.

قَوْلُهُ: «**بَيْنَمَا نَحنُ جُلُوسٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ**»، فَقَدْ كَانَ الصَّحَابَةُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُم - مِنْ عَادَتِهِم أَنَّهُم يَجْلِسُونَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَتَعَلَّمُونَ مِنْهُ وَيَسْتَرْشِدُونَ مِنْه، وَيَسْأَلُونَهُ عَنْ أُمُورِ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ، وَفِي جَلْسَةٍ مِنْ جَلَسَاتِهِمْ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهِم رَجُلٌ فِي صُورَةٍ عَجِيبَةٍ، لَمْ يَكُونُوا يَأْلَفُونَهَا، كَمَا قَالَ: «**إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ لا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ وَلا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ**»، فَهَذَا مِنَ العَجَائِبِ؛ لأَنَّهُ لَوْ كَانَ مِنْ أَهْلِ البَلَدِ لَعَرَفُوه، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ مِنْ خَارِجِ البَلَدِ، وَلَكِنْ لَيْسَ عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ؛ لأَنَّ العَادَةَ أَنَّ المسَافِرَ يَكُونُ شَعِثًا، «**أَشْعَثَ أَغْبَرَ**»[1] كَمَا فِي الحَدِيثِ؛ لأَنَّ السَّفَرَ يَقْتَضِي أَنَّ الإِنْسَانَ لا يَعْتَنِي بِنَفْسِهِ أَو بِهِنْدَامِهِ أَوْ بِجِسْمِهِ، فَهَذَا الرَّجُلُ لَيْسَ غَرِيبًا وَلَيْسَ مُوَاطِنًا؛ لأَنَّهُ لا يَظْهَرُ عَلَيْهِ عَلَامَاتُ السَّفَرِ، وَلَيْسَ مُوَاطِنًا؛ لأَنَّهُمْ لا يَعْرِفُونَهُ، وَلَوْ كَانَ فِي البَلَدِ لَعَرَفُوه، وَتَبَيَّنَ فِي الأَخِيرِ أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ هُوَ جِبْرِيلُ عليه السلام أَتَى بِهَذِهِ الصُّورَةِ.

وَكَانَ جِبْرِيلُ عليه السلام يَأْتِي إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي الغَالِبِ فِي صُورَةِ رَجُلٍ؛ لِأَنَّ بَنِي آدَمَ لَا يَسْتَطِيعُونَ رُؤْيَةَ المَلَكِ عَلَى خِلْقَتِهِ المَلَكِيَّةِ، فَكَانَ يَأْتِي فِي صُورَةِ رَجُلٍ حَتَّى لَا يَنْفُرَ النَّاسُ مِنْه، وَلَا يَسْتَوْحِشُوا مِنْه، هَذَا هُوَ الغَالِبُ؛ لِأَنَّ المَلَائِكَةَ لَا تَظْهَرُ

---

(١) أخرجه مسلم (١٠١٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

لِبَنِي آدَمَ فِي صُورَتِهَا الحَقِيقِيَّةِ إِلَّا عِنْدَ نُزُولِ المَوْتِ أَوْ العَذَابِ، فَإِذَا نَزَلَ المَوْتُ أَوِ العَذَابُ - وَالعِيَاذُ بِاللَّهِ - ظَهَرَتْ الملائِكَةُ عَلَى صُورَتِهَا، قَالَ ﷻ: ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الفرقان: ٢٢]، أَمَّا إِذَا جَاؤُوا فِي حَالَةِ الأَمْنِ فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَ بِصُورَةٍ مَأْلُوفَةٍ لِلنَّاسِ، وَاللهُ أَقْدَرَهُمْ عَلَى التَّصَوُّرِ بِصُوَرٍ مُخْتَلِفَةٍ.

وَلَمْ يَرَ النَّبِيُّ ﷺ جِبْرِيلَ عليه السلام فِي صُورَتِهِ المَلَكِيَّةِ إِلَّا مَرَّتَيْنِ(١):

المرةُ الأُولَى: فِي بَطْحَاءِ مَكَّةَ حِينَمَا اشْتَدَّ بِهِ الكَرْبُ مِنْ أَذَى قَوْمِهِ، رَأَى جِبْرِيلَ فِي الأُفُقِ عَلَى صُورَتِهِ المَلَكِيَّةِ جَاءَ يُطَمْئِنُهُ وَيُصَبِّرُهُ عَلَى مَا يَلْقَى(٢).

المرةُ الثَّانِيَةُ: رَأَى جِبْرِيلَ عليه السلام فِي صُورَتِهِ المَلَكِيَّةِ لَيْلَةَ المِعْرَاجِ عِنْدَ سِدْرَةِ المُنْتَهَى، قَالَ ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ [النجم: ١٣، ١٤]، أَمَّا فِي بَقِيَّةِ الأَحْوَالِ فَكَانَ يَأْتِي إِلَى الرَّسُولِ ﷺ فِي صُورَةِ رَجُلٍ مِنْ أَحْسَنِ الرِّجَالِ.

قَوْلُهُ: «**شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ**» مِنَ النَّظَافَةِ، وَقَوْلُهُ: «**شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ**» يَعْنِي: فِي صُورَةٍ جَمِيلَةٍ، وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ طَالِبَ العِلْمِ حِينَمَا يَحْضُرُ إِلَى مَجْلِسِ العِلْمِ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتَجَمَّلَ، وَأَنْ يَأْتِيَ بِصُورَةٍ نَظِيفَةٍ جَمِيلَةٍ؛ لأَنَّ جِبْرِيلَ جَاءَ مُعَلِّمًا وَمُتَعَلِّمًا، وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ عَلَّمَهُمْ كَيْفَ يَأْتُونَ إِلَى مَجْلِسِ الرَّسُولِ ﷺ؛ لأَنَّ مَجْلِسَ العِلْمِ مَجْلِسُ وَقَارٍ، واللِّقَاءُ بِالرَّسُولِ ﷺ واللِّقَاءُ

---

(١) أخرج البخاري (٣٢٣٥)، ومسلم (١٧٧)، واللفظ له عن مسروق أنه سأل عائشة رضي الله عنها عن قول الله ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴾، وقوله: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾، فَقَالَتْ: أَنَا أَوَّلُ هَذِهِ الأُمَّةِ سَأَلَ عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيلُ، لَمْ أَرَهُ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا غَيْرَ هَاتَيْنِ المَرَّتَيْنِ، رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطًا مِنَ السَّمَاءِ سَادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ».

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

بِالعُلَمَاءِ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ لَهُ اسْتِعْدَادٌ، وَإِجْلَالُ العُلَمَاءِ مَطْلُوبٌ؛ لأَنَّكَ إِذَا لَمْ تُجِلِّ العَالِمَ وتحْتَرِمْهُ لَمْ تَسْتَفِدْ مِنْ عِلْمِهِ، فَقَوْلُهُ: «**فَجَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ**» فِيهِ آدَابٌ لِطَالِبِ العِلْمِ مِنْهَا:

أَوْلاً: أنه يَتَجَمَّلُ فِي هَيْئَتِهِ وَصُورَتِهِ.

ثَانِيًا: أَنَّهُ يَجْلِسُ أَمَامَ المعَلِّمِ مُقْبِلاً عَلَيْهِ لِيَتَلَقَّى مِنْهُ العِلْمَ، وَلَا يُعْرِضُ عَنْهُ، أَوْ يَلْتَفِتُ، أَو يَمْزَحُ، أَو يَنْشَغِلُ، بَلْ يَكُونُ مُقْبِلاً عَلَى المعَلِّمِ بِجِسْمِهِ وَبِفِكْرِهِ؛ لِئَلَّا تَفُوتَه فُرْصَةُ التَّعَلُّمِ.

قَوْلُه: «**فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ**» أَيْ: أَسْنَدَ جِبْرِيلُ رُكْبَتَيهِ إِلَى رُكْبَتَيِ النَّبِيِّ ﷺ مُقَابِلاً لَهُ وَقَرِيبًا مِنْه، وَفِي هَذَا أَنَّ طَالِبَ العِلْمِ يَقْرُبُ مِنْ المُعَلِّمِ لِتكُونَ الفَائِدَةُ مُتَّصِلَةً، أَمَّا البَعِيدُ فَإِنَّهُ قَدْ لَا يَسْمَعُ، وَإِذَا سَمِعَ قَدْ لَا يَسْتَوْضِحُ الصَّوْتَ، فَإِذَا كَانَ قَرِيبًا فَإِنَّهُ يَسْمَعُ وَيَسْتَوضِحُ الصَّوْتَ تمَامًا، وَقَدْ كَانَ الصَّحَابَةُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ - يُحدِقُونَ بِالنبي ﷺ، ويَقْرُبُونَ مِنْهُ وَقْتَ تَلَقِّيهِمُ العِلْمَ عَنْهُ ﷺ[1].

قَوْلُه: «**وَوَضَعَ كَفَّيْهِ**» أَيْ: وَضَعَ جِبْرِيلُ كَفَيْهِ «**عَلَى فَخِذَيْهِ**» أَيْ: عَلَى فَخِذَيْ جِبْرِيلَ، وَهَذَا فِيهِ أَنَّ المتَعَلِّمَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ بِصُورَةٍ هَادِئَةٍ مُؤَدَّبَةٍ، وَلَا يُكْثِرَ مِنَ الحَرَكَاتِ أَوْ مِنَ الالْتِفَاتِ أَوْ مِنَ الشَّوَاغِلِ التِي تُشْغِلُهُ عَنْ

---

(١) أخرجه الترمذي (٥٠٩)، وأبويعلى في مسنده (٩/ ٢٨٢)، وأبونعيم في الحلية (٤/ ٢٣٦) من حديث ابن مسعود ﷺ، قال: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا اسْتَوَى عَلَى المِنْبَرِ اسْتَقْبَلْنَاهُ بِوُجُوهِنَا**». وفي إسناده محمد بن الفضل بن عطية، وهو ضعيف. وللحديث شاهد عند البخاري (٩٢١)، ومسلم (١٠٥٢) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، قال: «**جَلَسَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى المِنْبَرِ، وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ**».

تَلَقِّي العِلْم.

ثُمَّ سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ، وهَذَا فِيهِ أَنَّهُ إِذَا جَلَسَ واطْمَأَنَّ فَلَهُ أَنْ يَسْأَلَهُ، وَلَا يَسْأَلُ أَوَّلَ مَا يَأْتِي وَإِنَّمَا يَجْلِسُ أَوَّلاً مُتَأَدِّبًا ثُمَّ يَسْأَلُ، هَذِهِ صِفَةُ طَالِبِ العِلْمِ، وَهَذِهِ آدَابُ طَالِبِ العِلْمِ، سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ، وَهُوَ فِي الحَقِيقَةِ عَالِمٌ بِالجَوَابِ، لَكِنَّهُ سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ لِيُعَلِّمَ أَصْحَابَهُ، وَهَذَا فِيهِ التَّعْلِيمُ بِطَرِيقَةِ السُّؤَالِ وَالجَوَابِ؛ لأَنَّهُ أَنْبَهُ للذِّهْنِ، فَتَسْأَلُ الطَّالِبَ أَولاً ثُم تُجِيبُ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَتَنَبَّه، أَمَّا إِذَا أَلْقَيْتَ عَلَيْهِ العِلْمَ ابْتِدَاءً فإنّهُ قَدْ لَا يَتَنَبَّهُ، فَمِنْ طُرُقِ تَعْلِيمِ العِلْمِ النَّافِعَةِ السُّؤَالُ وَالجَوَابُ.

فَقَالَ: «أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلامِ» أَيْ: بَيِّنْ لِي حَقِيقَةَ الإِسْلَامِ؛ لأَنَّهُ لَابُدَّ مِنْ مَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ الإِسْلامِ، فَلَا يَكْفِي أَنَّ الإِنْسَانَ يَنْتَسِبُ إِلَى الإِسْلَامِ، أَوْ يَقُولُ: أَنَا مُسْلِمٌ، وَهُوَ لَا يَعْرِفُ حَقِيقَةَ الإِسْلَامِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا لَمْ يَعْرِفْ حَقِيقَةَ الإِسْلَامِ لَمْ يَعْمَلْ بِهِ؛ إِذْ كَيْفَ يَعْمَلُ بِشَيْءٍ يَجْهَلُهُ؟! فَالإِسْلَامُ لَا يَكْفِي فِيهِ الانْتِسَابُ مَعَ الجَهْلِ، بَلْ لَابُدَّ مِنْ مَعْرِفَةِ حَقِيقَتِهِ حَتَّى يُؤَدِّيَهِ عَلَى الوَجْهِ المَطْلُوبِ.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**الإِسْلامُ: أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ، وَتُقِيمَ الصَّلاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ البَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلا**»، هَذِهِ الأَرْكَانُ الخَمْسَةُ لَابُدَّ مِنْ أَدَائِهَا مَعَ اعْتِقَادِ القَلْبِ، وَمَا زَادَ عَلَى هِذِهِ الخَمْسَةِ مِنَ الوَاجِبَاتِ أَوْ مِنَ المُسْتَحَبَّاتِ، وَتَرْكِ المحرَّمَاتِ والمكْرُوهَاتِ فَإِنَّهُ مُكَمِّلٌ لِهَذِهِ الأَرْكَانِ، إِمَّا تَكْمِيلاً وَاجِبًا، وَإِمَّا تَكْمِيلاً مُسْتَحَبًّا، فَهِذِهِ الأَرْكَانُ هِي الأَسَاسَاتُ الَّتِي يَقُومُ عَلَيْهَا الإِسْلَامُ، ثُمَّ تَأْتِي بَقِيَّةُ الأَعْمَالِ مِنْ وَاجِبٍ وَمُسْتَحَبٍ، أَمَّا إِذَا تَرَكَ العَبْدُ هَذِهِ الأَرْكَانَ أَوْ تَرَكَ شَيْئًا مِنْهَا فَلَنْ يَنْفَعَهُ مَا عَدَاهَا مِنَ الوَاجِبَاتِ أَوِ المسْتَحَبَّاتِ؛ لأَنَّهُ لَمْ

يَبنِ عَلَى أَسَاسٍ، فَالبِنَاءُ إِنَّمَا يَقُومُ عَلَى أَسَاسٍ.

فَهَذِهِ الأَرْكَانُ لَيْسَتْ هِيَ كُلَّ الإِسْلَامِ، وإِنَّمَا هِيَ أَرْكَانُهُ فَقَطْ وَدَعَائِمُه، وإِلَّا فَالإِسْلَامُ وَاسِعٌ، وَكُلُّ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ وَتَرْكُ مَا نَهَى عَنْهُ فَإِنَّهُ مِنَ الإِسْلَامِ؛ وَلِهَذَا قَالَ ﷺ: **«المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ»**[1]، فَالإِسْلَامُ يَشْمَلُ فِعْلَ الأَوَامِرِ وَتَرْكَ المَنْهِيَّاتِ، فَإِنْ نَقُصَ شَيْءٌ فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ النَّقْصُ فِي الأَرْكَانِ فَإِنَّهُ لَا يَصِحُّ لَهُ إِسْلَامٌ، وَإِنْ كَانَ النَّقْصُ فِي غَيْرِهَا فَإِنَّهُ يَكُونُ إِسْلَامًا نَاقِصًا بِحَسَبِ مَا تُرِكَ، واللهُ ﷻ يَقُولُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨] أَيْ: ادْخُلُوا فِي الإِسْلَامِ كُلِّهِ، فَلَا تَأْخُذُوا بَعْضَهُ وَتَتْرُكُوا بَعْضَهُ، بَلْ يَأْخُذِ المُسْلِمُ مِنَ الإِسْلَامِ مَا يَسْتَطِيعُ، وَلَا يَقْتَصِرُ عَلَى بَعْضِهِ وَيَقُولُ: هَذَا يَكْفِي.

وَالإِسْلَامُ: هُوَ الاسْتِسْلَامُ لِلَّهِ ﷻ بِالتَّوْحِيدِ، والانْقِيَادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ، وَالبَرَاءَةُ مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ. هَذَا تَعْرِيفُهُ العَام؛ كَمَا ذَكَرَهُ شَيْخُ الإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ اللهُ، وَنَقَلَهُ عَنْهُ شَيْخُ الإِسْلَامِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِالوَهَّابِ فِي **(ثَلَاثَةُ الأُصُولِ)**[2]، هَذَا هُوَ الإِسْلَامُ بِمَعْنَاهُ العَامُّ، وَهَذِهِ الخَمْسَةُ هِيَ أَرْكَانُهُ وَدَعَائِمُهُ، فَلَيْسَتْ هِيَ كُلَّ الإِسْلَامِ، بَلْ هِيَ مَبَانِيه؛ كَمَا فِي حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا الآتِي، قَالَ ﷺ: **«بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلا**

---

(١) هذا الحديث ورد بألفاظ متقاربة في الصحيحين من حديث عبدالله بن عمرو، وجابر، وأبي موسى رضي الله عنهم، فقد رواه البخاري برقم (١٠، ١١، ٦٤٨٤)، ومسلم (٤٠، ٤١، ٤٢).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٦/ ٨١)، ومجموع الفتاوى (٥/ ٢٣٩)، ومؤلفات الإمام محمد بن عبد الوهاب ـ رسالة ثلاثة الأصول (٦/ ١٣٧)، وعقيدة الفرقة الناجية (ص١٧).

اللهُ...»[١] الحَدِيث، فَهَذِهِ الخَمْسُ هِيَ مَبَانِيه، أَيْ: قَوَاعِدُهُ وَأَسَاسَاتُه.

فَذَكَرَ أَنَّ الإِسْلَامَ خَمْسَةُ أَرْكَانٍ، وَهِيَ:

شَهَادَةُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ، وَحَجُّ بَيْتِ اللَّهِ الحَرَامِ لِمَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيْلاً، هَذِهِ الأَرْكَانُ الظَّاهِرَةُ.

الرُّكْنُ الأَوَّلُ: الشَّهَادَتَانِ؛ لأَنَّه لَا تُغنِي إِحْدَاهُمَا عَنِ الأُخْرَى، فَلَوْ شَهِدَ (**أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**) وَأَنْكَرَ (**أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ**) فَإِنَّهُ لَا تَصِحُّ شَهَادَتُهُ (**أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**)؛ وَكَذَلِكَ مَنْ شَهِدَ (**أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ**) وَلَمْ يَعْتَرِفْ (**أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**) لَمْ تَنْفَعْهُ شَهَادَتُهُ بِالرِّسَالَةِ، فَلَابُدَّ مِنَ الشَّهَادَتَيْنِ جَمِيعًا:

* شَهَادَةُ (**أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**)؛ وَمَعْنَاهَا: إِفْرَادُ اللَّهِ بِالْعِبَادَةِ.
* وَشَهَادَةُ (**أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ**) وَمَعْنَاهَا: إِفْرَادُ النَّبِيِّ بِالاتِّبَاعِ وَالاقْتِدَاءِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلَامُ؛ لأَنَّهُ مُبَلِّغٌ عَنِ اللَّهِ ﷻ.

فَلَيْسَ المُرَادُ بِالشَّهَادَتَيْنِ التلفُّظَ بِهِمَا فَقَطْ، بَلْ لَابُدَّ مِنَ الْعَمَلِ بِهِمَا.

وَمَعْنَى (**أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**)، أَيْ: أَعْتَرِفُ وَأُوقِنُ بِأَنَّهُ لَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إِلَّا اللهُ؛ فَإِنَّ (**لَا**) نَافِيَةٌ لِلْجِنْسِ، وَ(**إِلَهَ**) اسْمُهَا مَبْنِيٌّ مَعَهَا عَلَى الفَتْحِ فِي مَحَلِّ نَصْبٍ، والخَبَرُ مُقَدَّرٌ تَقْدِيرُهُ (**بِحَقٍّ**)[٢]، فَيَكُونُ تَقْدِيرُ الكَلَامِ: لَا إِلَهَ بِحَقٍّ، وَلَيْسَ مَعْنَى (**لَا إِلَهَ**) أَنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ آلِهَةٌ، فَلَيْسَ المُرَادُ نَفْيَ الآلِهَةِ، وَلَكِنَّ المُرَادَ نَفْيُ الآلِهَةِ الَّتِي هِيَ حَقٌّ، وَإِلَّا فَهُنَاكَ آلِهَةٌ كَثِيرَةٌ بَاطِلَةٌ، فَمِنَ

---

(١) أخرجه البخاري (٨)، ومسلم (١٦) من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) انظر: الدرر السنية (٢/ ٢٥٧).

النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ الشَّمْسَ، وَمِنْهُم مَنْ يَعْبُدُ القَمَرَ، وَمِنْهُم مَنْ يَعْبُدُ الكَوَاكِبَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الشَّجَرَ وَالحَجَرَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الأَمْوَاتَ وَالقُبُورَ وَالأَضْرِحَةَ، حَتَّى إِنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ البَقَرَ؛ كَمَا هُوَ مَوْجُودٌ فِي الهِنْدِ، بَلْ هُنَاكَ مَنْ يَعْبُدُ الفُرُوجَ - وَالعِيَاذُ بِاللَّهِ - فَالآلِهَةُ كَثِيرَةٌ، وَلَكِنَّ الإِلَهَ الحَقَّ هُوَ اللهُ عَجَّلَ، قَالَ عَجَّلَ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢].

و(الإِلَهُ) مَعْنَاهُ المَعْبُودُ، أَيْ: لَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إِلَّا اللهُ، فَيَنْفِي هَذَا كُلَّ مَعْبُودٍ بِالبَاطِلِ، وكُلُّ مَا سِوَى اللَّهِ فَهُوَ مَعْبُودٌ بِالبَاطِلِ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾، فَهَذَا مَعْنَى الشَّهَادَةِ، وَلَيْسَ تَقْدِيرُ الخَبَرِ (مَوْجُودٌ)[1] مِثْلَ مَا يَقُولُه بَعْضُ النَّاسِ: لَا إِلَهَ مَوْجُودٌ. فَإِنَّ هَذَا غَيْرُ صَحِيحٍ، فَالآلِهَةُ المَوْجُودَةُ كَثِيرَةٌ، وَكُلٌّ يَعْلَمُ أَنَّ النَّاسَ يَعْبُدُونَ آلِهَةً مُتَفَرِّقَةً، مُنْذُ حَدَثَ الشِّرْكُ فِي الأَرْضِ وَإِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ وَالشِّرْكُ مَوْجُودٌ وَالمَعْبُودَاتُ مَوْجُودَةٌ وَكَثِيرَةٌ، وَلَكِنَّ الإِلَهَ الحَقَّ هُوَ اللهُ عَجَّلَ، قَالَ عَجَّلَ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤]، فَاللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لَهُ الأُلُوهِيَّةُ الحَقَّةُ، وَأَمَّا مَا عَدَاهَا فَأُلُوهِيَّتُه بَاطِلَةٌ، وَمَعْبُودٌ بِغَيْرِ حَقٍّ، فَهَذَا مَعْنَى (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) وَهَذَا إِعْرَابُهَا عِنْدَ المحقِّقِين مِنْ أَهْلِ اللُّغَةِ[2].

(١) انظر: الدرر السنية (٢/ ٢٦١).

(٢) انظر: شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز (ص١١١ وما بعدها)، والدرر السنية (٢/ ٢٥٧).

وَمَعْنَى (أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ) أَيْ: أَعْتَرِفُ وَأُقِرُّ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ، أَرْسَلَهُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، إِلَى الثَّقَلَيْنِ: الجِنِّ وَالإِنْسِ، فَلَابُدَّ مِنَ الإِقْرَارِ بِرِسَالَتِهِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، ظَاهِرًا بِاللِّسَانِ، وَبَاطِنًا بِالقَلْبِ، أَمَّا مَنْ يَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ بِاللِّسَانِ وَيُنْكِرُ بِالْقَلْبِ فَهَذَا مُنَافِقٌ، قَالَ ﷻ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَكَـٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]، كَاذِبُونَ فِي شَهَادَتِهِمْ؛ لأَنَّهُمْ لا يَعْتَرِفُونَ لَكَ بِالرِّسَالَةِ بِقُلُوبِهِمْ، وَإِنَّمَا يَتَلَفَّظُونَ بِذَلِكَ لأَجْلِ مَطَامِعِ الدُّنْيَا وَالعَيْشِ مَعَكُمْ، ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ [المنافقون: ٢]، يَعْنِي سُتْرَةً يَسْتَتِرُونَ بِهَا، وإِلَّا فَهُمْ كُفَّارٌ فِي قُلُوبِهِمْ، فَلَابُدَّ مِنْ الاعْتِرَافِ بِرِسَالَتِهِ ﷺ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا.

وَكَذَلِكَ الذِي يَعْتَرِفُ بِرِسَالَتِهِ بَاطِنًا وَيَأْبَى أَنْ يَنْطِقَ بِهَا ظَاهِرًا هَذَا لَيْسَ بِمُؤْمِنٍ، فَالمشْرِكُونَ يَعْتَرِفُونَ أَنهُ رَسُولُ اللَّهِ، قَالَ ﷻ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، يَعْتَرِفُونَ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، لَكِنْ مَنَعَهُمْ الكِبْرُ وَمَنَعَهُمْ الحَمِيةُ الجَاهِلِيَّةُ لِآلِهَتِهِمْ أَنْ يَشْهَدُوا بِرِسَالَتِهِ ﷺ.

أَيْضًا اليَهُودُ والنَّصَارَى يَعْتَرِفُونَ أَنهُ رَسُولُ اللَّهِ بِقُلُوبِهِمْ، لَكِنْ جَحَدُوا هَذَا، وَلَمْ يَعْتَرِفُوا بِأَلْسِنَتِهِمْ، قَالَ ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ﴾ أَيْ: رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦]، فَلَا يَكْفِي الاعْتِرَافُ بِأَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ بَاطِنًا فِي القَلْبِ مَعَ عَدَمِ النُّطْقِ بِاللِّسَانِ لِمَنْ يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ، فَإِنَّ المشْرِكِين واليَهُودَ

والنَّصارَى كَانُوا يَعْتَرِفُونَ أَنَّه رَسُولُ اللَّهِ فِي قُلُوبِهِمْ، لَكِنْ أَبَوْا أَنْ يُقِرُّوا بِأَلْسِنَتِهِمْ، خَوْفًا عَلَى دُنْيَاهُمْ، أَو خَوْفًا عَلَى رِئَاسَتِهِمْ، أَوْ حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ لِلرَّسُولِ ﷺ، أَوْ تَكَبُّرًا، أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الأَغْرَاضِ السَّيِّئَةِ.

ثُمَّ إِذَا شَهِدَ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا فَلابُدَّ أَنْ يَتَّبِعَهُ، فَإِنْ شَهِدَ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا ظَاهِرًا وَبَاطِنًا لَكِنَّهُ لَمْ يَتَّبِعْهُ، لَمْ تَصِحَّ شَهَادَتُهُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، قَالَ ﷻ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [القصص: ٥٠]، فَإِذَا لَمْ يُطِعْهُ فِي شَيْءٍ فَهَذَا كَافِرٌ، وَإِنْ أَطَاعَهُ فِي أَشْيَاءَ وَلَمْ يُطِعْهُ فِي بَعْضِ الأَشْيَاءِ فَهَذَا شَهَادَتُهُ نَاقِصَةٌ، عِنْدَهُ نَقْصٌ بِحَسَبِ مَا تَرَكَ، فَلابُدَّ مِنْ طَاعَتِهِ ﷺ، قَالَ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣]، ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠]، ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢]، ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾ [النور: ٥٤]، فَتَارَةً يَذْكُرُ طَاعَتَه مَعَ طَاعَةِ اللَّهِ، وَتَارَةً يَذْكُرُ طَاعَتَهُ وَحْدَهَا، فَلابُدَّ مِنْ طَاعَتِهِ ﷺ واتِّبَاعِهِ، وَلابُدَّ أَيْضًا مِنَ الاقْتِصَارِ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ وَعَدَمِ الزِّيَادَةِ عَمَّا جَاءَ بِهِ، فَلَا يَأْتِي بِأَشْيَاءَ مِنَ العِبَادَاتِ لَمْ يُشَرِّعْهَا الرَّسُولُ ﷺ، قَالَ ﷺ: «وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»[1]، وَقَالَ ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلاً

---

(١) أخرجه أبوداود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢، ٤٣، ٤٤)، وأحمد =

لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[1].

فَمِنْ مَعَانِي شَهَادَةِ (أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ) تَرْكُ البِدَعِ وَالمحْدَثَاتِ، والاقْتِصَارُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ.

ثُمَّ أَيْضًا لَابُدَّ مِنْ تَصْدِيقِهِ ﷺ فِيمَا أَخْبَرَ وَفِيمَا أَمَرَ بِهِ وَنَهَى عَنْهُ[2]، فَلَوْ عَمِلَ العَبْدُ بِمَا جَاءَ بِهِ وَلَكِنَّهُ لَمْ يُصَدِّقْهُ، فَهَذِهِ طَرِيقَةُ المنَافِقِينَ، فَهُمْ يُصَلُّونَ وَيَصُومُونَ وَيَحُجُّونَ وَيُجَاهِدُونَ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يُصَدِّقُونَ بِمَا جَاءَ بِهِ ﷺ، فَلَابُدَّ مِنْ تَصْدِيقِهِ فِيمَا أَخْبَرَ بِهِ ﷺ مِنْ المغَيَّبَاتِ المَاضِيَةِ وَالمسْتَقْبَلَةِ، وَفِيمَا أَخْبَرَ بِهِ مِنَ الأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي، لَابُدَّ مِنْ تَصْدِيقِهِ وَعَدَمِ الشَّكِّ فِي شَيْءٍ مِمَّا جَاءَ بِهِ ﷺ، كَمَا قَالَ اللهُ ﷻ فِي حَقِّهِ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤]، وَكَمَا قَالَ ﷻ: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، وَتَجِبُ طَاعَتُهُ والاقْتِدَاءُ بِهِ، وَتَرْكُ البِدَعِ وَالمحْدَثَاتِ الَّتِي لَمْ يَأْتِ بِهَا ﷺ، فَالخَيْرُ كُلُّه فِيمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ، وَمَا لَمْ يَأْتِ بِهِ فَهُوَ شَرٌّ وَلَيْسَ بِخَيْرٍ، وَلَوْ كَانَ صَاحِبُهُ يُرِيدُ بِهِ الخَيْرَ وَيَقُولُ: هَذَا زِيَادَةُ خَيْرٍ. نَقُولُ: لَا، هَذِهِ بِدْعَةٌ، وَالبِدْعَةُ مَرْدُودَةٌ، وَهَذَا شَرٌّ، فَأَنْتَ بِزَعْمِكَ تَتَقَرَّبُ بِهَا لِلَّهِ

=

(٤/ ١٢٦)، والدارمي (٩٥)، والطبراني في الكبير (٦٢٣)، وابن حبان (١/ ١٧٩) من حديث العرباض بن سارية ﷺ.

(١) أخرجه مسلم (١٧١٨)، ورواه البخاري معلقاً في كتاب البيوع - باب النجش (٤/ ٣٥٦ فتح) ط. دار المعرفة، وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة - باب إذا اجتهد العامل أو الحاكم فأخطأ (١٣/ ٣١٧ فتح).

(٢) انظر: مؤلفات الإمام محمد بن عبدالوهاب (٦/ ١٣٧) ثلاثة الأصول - ضمن القسم الأول: العقيدة والآداب الإسلامية.

وَهِيَ تُبْعِدُكَ عَنْ اللَّهِ.

فَهَذِهِ بَعْضُ مَعَانِي شَهَادَةِ (أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ)؛ كَذَلِكَ الذِي يَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلا اللهُ، ثُمّ يَعْبُدُ غَيْرَ اللَّهِ، كَحَالَةِ المشْرِكِينَ اليَوْمَ الذِينَ يَدَّعُونَ الإِسْلَامَ وَهُمْ يَعْبُدُونَ القُبُورَ والأَضْرِحَةَ، هَؤُلاءِ لَا تَصِحُّ شَهَادَتهُمْ بَأَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؛ لأَنَّهُمْ نَاقَضُوهَا بِالشِّرْكِ، فَهُمْ يَتَلَفَّظُونَ بـ(لا إِلَهَ إِلا اللهُ) وَلَكِنَّ العَمَلَ عَلَى خِلَافِهَا، فَيَعْبُدُونَ غَيْرَ اللَّهِ، وَيَدْعُونَ غَيْرَ اللَّهِ، ويَسْتَغِيثُونَ بِالأَمْوَاتِ، فَهَؤُلاءِ لَمْ يَشْهَدُوا أَنَّ لَا إِلَهَ إِلا اللهُ حَقًّا، وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي الإِسْلامِ؛ لأَنَّهُمْ يَتَنَاقَضُونَ.

الرُّكْنُ الثَّانِي: إِقَامُ الصَّلاةِ؛ لِقَوْلِهِ ﷺ: «وَتُقِيمَ الصَّلاةَ» أَيْ: تُؤَدِّي الصَّلَوَاتِ الخَمْسَ المفْرُوضَةَ فِي اليَوْمِ وَاللَّيلَةِ، مَا مَعْنَى تُقِيمُهَا؟ لِأَنَّهُ مَا قَالَ: وأَنْ تُصَلِّيَ، إِنَّمَا قَالَ: «وَتُقِيمَ الصَّلاةَ»؛ لأَنَّ المَقْصُودَ إِقَامَةُ الصَّلَاةِ، وَلَيْسَ المَقْصُودُ صُورَةَ الصَّلاةِ فَقَطْ، فَتُقِيمُ الصَّلاةِ بَأَنْ تَأْتِيَ بِهَا كَمَا جَاءَ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ؛ لِقَوْلِهِ ﷺ: «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي»[1]، فَالذِي رَآهُ بِعَيْنِهِ يَقْتَدِي بِهِ، وَالذِي بَلَغَهُ خَبَرُهُ وَأَحَادِيثُهُ الصَّحِيحَةُ يَمْتَثِلُ وَيُصَلِّي كَمَا فِي الأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ التِي بَلَغَتْه، هَذَا مِنْ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَى الصِّفَةِ التِي كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُؤَدِّي الصَّلَاةَ بِهَا، وَلَا يُزِيدَ مِنْ عِنْدِهِ، أَوْ يُنْقِصَ مِنْهَا.

وَكَذَلِكَ مِنْ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ: أَنْ يُصَلِّيَهَا فِي الوَقْتِ الَّذِي حَدَّدَهُ اللهُ لَهَا، قَالَ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ [النِّسَاء: ١٠٣]، فَلَا يُخْرِجهَا عَنْ وَقْتِهَا؛ لِأَنَّ المَقْصُودَ أَنْ يُصَلِّيَ كَمَا أَمَرَهُ اللهُ، واللهُ أَمَرَكَ أَنْ تُصَلِّيَ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣١) من حديث مالك بن الحويرث ﷺ.

الصَّلَاةَ فِي وَقْتِهَا، وَقَدْ سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ: أَيُّ الأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ فَقَالَ: «**الصَّلَاةُ لِوَقْتِهَا**»[١]، أَمَّا مَنْ يَتَصَرَّفُ وَيُصَلِّي عَلَى هَوَاهُ مَتَى مَا أَرَادَ وَمَتَى مَا قَامَ مِنْ نَوْمِهِ أَوْ فَرَغَ مِنْ شُغْلِهِ، فَهَذَا صَلَاتُهُ غَيْرُ صَحِيحَةٍ؛ لأَنَّهُ لَمْ يُصَلِّ الصَّلَاةَ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا، وَإِنَّمَا صَلَّى صَلَاةً عَلَى حَسَبِ هَوَاهُ.

وَكَذَلِكَ مِنْ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ: الْخُشُوعُ فِيهَا، وَحُضُورُ الْقَلْبِ، فَالَّذِي يُصَلِّي بِجِسْمِهِ وَلَكِنَّ قَلْبَهُ غَائِبٌ لَيْسَ لَهُ مِنْ صَلَاتِهِ إِلَّا مَا عَقَلَ مِنْهَا وَحَضَرَ قَلْبُهُ فِيهَا، قَالَ ﷻ: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١، ٢]، وقال: ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ [البقرة: ٤٥]، يَعْنِي: الصَّلَاةُ ثَقِيلَةٌ إِلَّا عَلَى الخَاشِعِينَ، فَإِنَّهَا تَكُونُ عَلَيْهِمْ مُيَسَّرَةً وَيَتَلَذَّذُونَ بِهَا، والخُشُوعُ رُوحُ الصَّلَاةِ، وصَلَاةٌ بِلَا خُشُوعٍ كَجَسَدٍ بِلَا رُوحٍ، وَإِنْ كَانَ قَدْ صَلَّى فِي الظَّاهِرِ وَلَا يُؤْمَرُ بِالإِعَادَةِ، لَكِنْ لَيْسَ لَهُ فِيهَا ثَوَابٌ، فَقَدْ يَخْرُجُ مِنْهَا وَلَيْسَ مَعَهُ أَجْرٌ أَبَدًا؛ لأَنهُ لَمْ يَحْضُرْ قَلْبُهُ فِيهَا مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا، وَقَدْ يَخْرُجُ مِنْهَا بِشَيْءٍ يَسِيرٍ، وَقَدْ يَخْرُجُ مِنْهَا بِكَثِيرٍ، وَقَدْ يَخْرُجُ مِنْهَا بِأَجْرٍ كَامِلٍ، وَذَلِكَ حَسَبَ خُشُوعِهِ فِي الصَّلَاةِ.

وَمِنْ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ صَلَاتُهَا فِي المَسَاجِدِ مَعَ الجَمَاعَةِ، فَإِنَّ الجَمَاعَةَ وَاجِبَةٌ عَلَى الأَعْيَانِ - يَعْنِي عَلَى الأَشْخَاصِ - فَكُلُّ مُسْلِمٍ يَقْدِرُ عَلَى حُضُورِ المَسْجِدِ وَالصَّلَاةِ مَعَ الجَمَاعَةِ يَجِبُ عَلَيْهِ ذَلِكَ، قَالَ ﷺ: «**مَنْ سَمِعَ النِّدَاءَ فَلَمْ يُجِبْ فَلَا صَلَاةَ لَهُ إِلَّا مِنْ عُذْرٍ**»[٢]، وَلَوْ كَانَ كُلُّ وَاحِدٍ يُصَلِّي فِي مَكَانِهِ

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢٧)، ومسلم (٨٥) من حديث ابن مسعود ﷺ.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٧٩٣)، وابن حبان في صحيحه (٥/ ٤١٥)، والطبراني في الأوسط =

أَوْ فِي بَيْتِهِ لِمَاذَا شُرِعَ الأَذَانُ؟ لِمَاذَا شُرِعَ أَنْ يَقُولَ المؤَذِّنُ: حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، حَيَّ عَلَى الفَلَاحِ؟ يَعْنِي: تَعَالَوْا صَلُّوا مَعَ الجَمَاعَةِ فِي بُيُوتِ اللَّهِ ﷻ، إِلَّا مَنْ كَانَ لَهُ عُذْرٌ، أَوْ لَيسَ عِنْدَهُ جَمَاعَةٌ، أَوْ لَيْسَ عِنْدَهُ مَسْجِدٌ فَلْيُصَلِّ فِي مَكَانِهِ، أَمَّا الذِي حَوْلَ المسْجِدِ وَيَسْمَعُ الأَذَانَ وَهُوَ مُعَافًى وَآمِنٌ فَلَا صَلَاةَ لَهُ إِذَا صَلَّى فِي بَيْتِهِ.

الرُّكْنُ الثَّالِثُ: إِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَهِيَ حَقٌّ فَرَضَهُ اللهُ ﷻ فِي أَمْوالِ الأَغْنِيَاءِ لِلْفُقَرَاءِ، قَالَ الله ﷻ: ﴿ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴾ [الذاريات: ١٩]، ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴾ [المعارج: ٢٤، ٢٥]، فَهِيَ حَقٌّ وَاجِبٌ وَلَيْسَتْ سُنَّةً أَوْ مُسْتَحَبَّةً أَوْ تَبَرُّعًا[١]، فَمَنْ أَدَّاهَا بِطِيبِ نَفْسٍ قُبِلَتْ مِنْهُ، وَمَنْ امْتَنَعَ مِنْ أَدَائِهَا فَإِنْ كَانَ مُنْكِرًا لِوُجُوبِهَا فَهُوَ كَافِرٌ، وَإِنْ كَانَ مُعْتَرِفًا بِوُجُوبِهَا وَلَكِنْ مَنَعَهُ البُخْلُ مِنْ إِخْرَاجِهَا، فَإِنَّهُ يَجِبُ عَلَى وَلِيِّ الأَمْرِ أَنْ يَأْخُذَهَا مِنْهُ قَهْرًا وَيُعَزِّرَهُ وَيُؤَدِّبَهُ، وَإِنْ كَانَ مَعَهُ شَوْكَةٌ وَجُنُودٌ وَعُدَّةٌ يَمتَنِعُ بِهِمْ، فَعَلَى وَلِيِّ الأَمْرِ أَنْ يُجَيِّشَ الجَيْشَ لِقِتَالِهِ حَتَّى يُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ؛ كَمَا قَاتَلَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه مَانِعِي الزَّكَاةِ فِي خِلَافَتِهِ[٢]، أَمَّا إِذَا كَانَ يَجْحَدُ

=

(٤/ ٣١٤)، والكبير (١٢٢٦٦)، والحاكم في المستدرك (١/ ٣٧٣)، والدارقطني (١/ ٤٢٠)، والبيهقي في الكبرى (٣/ ٥٧)، والضياء المقدسي في المختارة (١٠/ ٢٣٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٦/ ٢٠٠-٢٠٤)، وتفسير ابن كثير (٤/ ٢٣٥، ٢٣٦)، وفتح الباري (٣/ ٣٣٧)، وفتح القدير (٥/ ٨٤).

(٢) أخرج البخاري (١٤٠٠، ١٤٥٦)، ومسلم (٢٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ الله ﷺ، وَاسْتُخْلِفَ أَبُو بَكْرٍ بَعْدَهُ، وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنَ الْعَرَبِ، قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ لِأَبِي

=

وُجُوبَهَا وَيَقُولُ: لَيْسَتِ الزَّكَاةُ وَاجِبَةً، وَالنَّاسُ أَحْرَارٌ، فَهَذَا يُسْتَتَابُ، فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قُتِلَ مُرْتَدًّا وَالعِيَاذُ بِاللَّهِ.

الرُّكْنُ الرَّابِعُ: صَوْمُ شَهْرِ رَمَضَانَ مِنْ كُلِّ سَنَةٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﷻ: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ فَيَجِبُ عَلَى المسْلِمِ أَنْ يَصُومَ شَهْرَ رَمَضَانَ أَدَاءً إِنْ كَانَ يَسْتَطِيعُ الأَدَاءَ وَلَيْسَ لَهُ عُذْرٌ، أَوْ قَضَاءً إِذَا كَانَ لَا يَسْتَطِيعُ الأَدَاءَ وَلَهُ عُذْرٌ، قَالَ ﷻ: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فَالمَرِيضُ وَالمسَافِرُ يُفْطِرَانِ وَيَقْضِيَانِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعِ الصِّيَامَ لِكِبَرٍ وَهَرَمٍ أَوْ لِمَرَضٍ مُزْمِنٍ فَإِنَّهُ يَفْدِي، قَالَ ﷻ: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البقرة: ١٨٤]، كُلَّ يَومٍ يُطْعِمُ مِسْكِينًا فِدْيَةً عَنِ الصِّيَامِ، إِذَا كَانَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَصُومَ لَا أَدَاءً وَلَا قَضَاءً(١).

الرُّكْنُ الخَامِسُ: حَجُّ بَيْتِ اللَّهِ الحَرَامِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً.

والحَجُّ مَعْنَاهُ فِي اللُّغَةِ(٢): القَصْدُ.

= بَكْرٍ: كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ، وَنَفْسَهُ، إِلَّا بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَاللهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ المَالِ، وَاللهِ لَوْ مَنَعُونِي عِقَالًا كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهِ، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ: فَوَاللهِ، مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الحَقُّ».

(١) انظر: تفسير عبدالرزاق (١/ ٧٠)، وتفسير الطبري (٢/ ١٣٣-١٤٠)، وتفسير ابن أبي حاتم (١/ ٣٠٧-٣١٢)، والدر المنثور (١/ ٤٢٨).

(٢) انظر: النهاية في غريب الأثر (١/ ٣٤٠)، ولسان العرب (٢/ ٢٢٦)، والقاموس المحيط (ص٢٣٤).

وَأَمَّا فِي الشَّرْعِ[1]: فَهُوَ قَصْدُ البَيْتِ الحَرَامِ لِأَدَاءِ مَنَاسِكِ الحَجِّ وَالعُمْرَةِ تَقَرُّبًا إِلَى اللَّهِ ﷻ، فَالحَجُّ وَالعُمْرَةُ عِبَادَتَانِ لِلَّهِ ﷻ، وَلَكِنَّ مَكَانَهُمَا وَمَحِلَّهُمَا فِي المَسْجِدِ الحَرَامِ وَمَا حَوْلَهُ مِنَ المَشَاعِرِ، فَلَوْ أَنَّهُ حَجَّ إِلَى غَيْرِ الكَعْبَةِ، فَلَنْ يُقْبَلَ حَجُّه، وَإِذَا اعْتَقَدَ أَنَّهُ يَحُجُّ إِلَى قَبْرٍ أَوْ إِلَى ضَرِيحٍ أَوْ إِلَى بِنَايَةٍ أَوْ إِلَى شَجَرٍ فَإِنَّهُ يَرْتَدُّ عَنْ دِينِ الإِسْلَامِ، فَلَيْسَ هُنَاكَ شَيْءٌ يُحَجُّ إِلَيْهِ إِلَّا بَيْتُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ البَيْتُ العَتِيقُ، فَتُؤَدَّى مَنَاسِكُ الحَجِّ وَالعُمْرَةِ عِنْدَه وَحَوْلَهُ، كَمَا أَمَرَ اللهُ، وَالحَجُّ فِي زَمَنٍ مَخْصُوصٍ، كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وَأَمَّا العُمْرَةُ فَفِي كُلِّ السَّنَةِ لَيْسَ لَهَا وَقْتٌ مُحَدَّدٌ.

وَقَالَ ﷻ: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، لَمَّا كَانَ الحَجُّ يَحْتَاجُ إِلَى نَفَقَةٍ، وَيَحْتَاجُ إِلَى مَؤُونَةٍ، وَيَحْتَاجُ إِلَى سَفَرٍ، وَفِيهِ مَشَقَّةٌ، شَرَطَ اللهُ لِوُجُوبِهِ الاسْتِطَاعَةَ، فَالاسْتِطَاعَةُ تَكُونُ بِالمَالِ، وَتَكُونُ بِالبَدَنِ، فَمَنْ اسْتَطَاعَ بِبَدَنِهِ وَلَيْسَ عِنْدَهُ مَالٌ فَلَيْسَ عَلَيْهِ حَجٌّ، وَمَنِ اسْتَطَاعَ بِمَالِهِ وَلَكِنْ لَا يَسْتَطِيعُ بِبَدَنِهِ فَإِنَّهُ يُوَكِّلُ مَنْ يَحُجُّ عَنْهُ، وَلَمَّا كَانَ الحَجُّ شَاقًّا وَبَعِيدَ المَكَانِ عَلَى بَعْضِ المُسْلِمِينَ، يَسَّرَهُ اللهُ وَجَعَلَهُ مَرَّةً وَاحِدَةً فِي العُمْرِ مَعَ الاسْتِطَاعَةِ، وَمَا زَادَ عَنْ المَرَّةِ الوَاحِدَةِ فَإِنَّهُ تَطَوُّعٌ، كَمَا فِي الحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**أَيُّهَا النَّاسُ، قَدْ فَرَضَ اللهُ عَلَيْكُمُ الحَجَّ فَحُجُّوا**»، فَقَالَ رَجُلٌ: أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَسَكَتَ حَتَّى قَالَهَا ثَلَاثًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجَبَتْ وَلَمَا**

(١) انظر: المغني (٣/ ٨٥)، وفتح الباري (٣/ ٣٧٨)، وعون المعبود (٥/ ٩٩)، وتحفة الأحوذي (٣/ ٤٥١).

اسْتَطَعْتُمْ»[١]، فالحَجُّ مَرَّةٌ وَاحِدَةٌ - وَلِلَّهِ الحَمْدُ - هَذَا هُوَ الفَرْضُ، وَمَا زَادَ عَنْ المَرَّةِ فَهُوَ تَطَوُّعٌ.

فَهَذِهِ أَرْكَانُ الإِسْلَامِ الخَمْسَةُ، وَالحَجُّ مَعَهُ العُمْرَةُ؛ لِأَنَّ فِي بَعْضِ رِوَايَاتِ حَدِيثِ عُمَرَ رضي الله عنه: «وَأَنْ تَحُجَّ وَتَعْتَمِرَ»[٢]، وَالعُمْرَةُ تُسَمَّى الحَجَّ الأَصْغَرَ.

ثُمَّ سَأَلَهُ عَنِ الإِيمَانِ، فَقَالَ: «أَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ»، فَقَال ﷺ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ».

فَالإِيمَانُ: هُوَ هَذِهِ الأَرْكَانُ البَاطِنَةُ.

وَهُوَ فِي اللُّغَةِ: التَّصْدِيقُ الجَازِمُ الذِي لَا يَعْتَرِيه شَكٌّ[٣].

وَأَمَّا فِي الشَّرْعِ: فَهُوَ قَوْلٌ بِاللِّسَانِ واعْتِقَادٌ بِالقَلْبِ، وَعَمَلٌ بِالجَوارِحِ يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ وَيَنْقُصُ بِالمَعْصِيَةِ[٤]، هَذَا هُوَ الإِيمَانُ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ، خِلَافًا للمُرْجِئَةِ[٥] الذِينَ يَقُولُونَ: الإِيمَانُ هُوَ التَّصْدِيقُ بِالقَلْبِ، أَوِ التَّصْدِيقُ بِالقَلْبِ وَالنُّطْقُ بِاللِّسَانِ فَقَطْ، وَلَا يَدْخُلُ العَمَلُ فِيه. هَذَا قَوْلُ

---

(١) أخرجه مسلم (١٣٣٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١/ ٣٩٨)، والنسائي في الصغرى (ص٢٣)، وابن خزيمة في صحيحه (١/ ٣)، والدارقطني في سننه (٢/ ٢٨٢)، والبيهقي في الكبرى (٤/ ٣٤٩)، وفي شعب الإيمان (٣/ ٤٢٨).

(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث (١/ ٦٩)، ولسان العرب (١٣/ ٢٦)، ومختار الصحاح (ص١١).

(٤) انظر: العقيدة للإمام أحمد بن حنبل (ص١١٧)، ولمعة الاعتقاد (ص٢٣)، ومجموع الفتاوى (٧/ ٥٠٥)، واجتماع الجيوش الإسلامية (ص٨٤)..

(٥) المرجئة: قيل من الإرجاء أي: من التأخير؛ لأنهم أخَّروا العمل عن مسمى الإيمان، وقيل من الرجاء؛ لأنهم يقولون: لا يضر مع الإيمان معصية؛ كما لا ينفع مع الكفر طاعة. وهم فِرَق شتَّى. انظر: مقالات الإسلاميين (ص١٣٢)، والفرق بين الفِرَق (ص١٩٠).

مَرْدُودٌ، فَلَابُدَّ مِنَ العَمَلِ، وَلَا يَكُونُ الإِنْسَانُ مُؤْمِنًا بِدُونِ العَمَلِ، حَتَّى وَلَوْ صَدَّقَ بِقَلْبِهِ، وَلَوْ نَطَقَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَقُمْ بِالعَمَلِ وَلَيْسَ لَهُ عُذْرٌ يَمْنَعُهُ مِنْهُ فَلَيْسَ بِمؤْمِنٍ؛ لأَنَّ اللهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - ذَكَرَ الإِيمَانَ مَقْرُونًا بِالعَمَلِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الآيَاتِ، وَلَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى ذِكْرِ الإِيمَانِ فَقَطْ، قَالَ ﷻ: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ [الأنفال: ٢-٤]، وَقَالَ اللهُ ﷻ: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحُجُرات: ١٥].

وَفِي الحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ وَالحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ**»[1]، هَذَا الحَدِيثُ فِيهِ أَنَّ الإِيمَانَ: قَوْلٌ وَعَمَلٌ واعْتِقَادٌ؛ لِأَنَّهُ قَالَ: «**أَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**» هَذَا قَوْلٌ بِاللِّسَانِ، «**وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ**» وَهَذَا عَمَلٌ «**وَالحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ**» وَهَذَا فِي القَلْبِ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الإِيمَانَ يَتَكَوَّنُ مِنْ هَذِهِ الأُمُورِ الثَّلَاثَةِ، فَمَنْ تَرَكَ العَمَلَ نِهَائِيًّا وَلَمْ يَعْمَلْ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى ذَلِكَ وَإِمْكَانِيَّةِ العَمَلِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بِمُؤْمِنٍ، أَمَّا مَنْ تَرَكَ بَعْضَ العَمَلِ، فَهَذَا قَدْ يَكُونُ كَافِرًا، وَقَدْ يَكُونُ نَاقِصَ الإِيمَانِ، فَإِذَا تَرَكَ الصَّلَاةَ فَهُوَ كَافِرٌ، كَمَا فِي الأَحَادِيثِ وَالآيَاتِ، أَمَّا إِذَا تَرَكَ شَيْئًا مِنَ الأَعْمَالِ غَيْرَ الصَّلَاةِ فَإِنَّهُ يَكُونُ مُؤْمِنًا نَاقِصَ الإِيمَانِ، كَأَصْحَابِ الكَبَائِرِ الَّتِي دُونَ الشِّرْكِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وَلَابُدَّ مِنَ اجْتِمَاعِ الإِسْلَامِ فِي الظَّاهِرِ وَالإِيمَانِ فِي البَاطِنِ، فَمَنْ اقْتَصَرَ عَلَى الإِسْلَامِ فقط دُونَ الإِيمَانِ فَهَذَا مُنَافِقٌ، فَإِنَّ المنَافِقِينَ أَسْلَمُوا فِي الظَّاهِرِ، وَصَارُوا يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَعْمَلُونَ أَرْكَانَ الإِسْلَامِ، لَكِنْ لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ إِيمَانٌ، فَهُمْ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ. وَكَذَلِكَ مَنْ آمَنَ بِقَلْبِهِ وَلَمْ يَمْتَثِلْ بِجَوَارِحِهِ وَلَمْ يَنْطِقْ بِالشَّهَادَتَيْنِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بِمُؤْمِنٍ؛ لأَنَّ الإِيمَانَ بِالقَلْبِ فَقَطْ لَا يَكْفِي، وَإِنَّمَا الإِيمَانُ بِالقَلْبِ هُوَ أَحَدُ دَعَائِمِ الإِيمَانِ، وَلَابُدَّ مِنَ النُّطْقِ بِاللِّسَانِ وَالعَمَلِ بِالجَوَارِحِ، وَإِلَّا فَإِنَّ المشْرِكِينَ يُؤْمِنُونَ بِقُلُوبِهِمْ، وَاليَهُودُ والنَّصَارَى يُؤْمِنُونَ بِقُلُوبِهِمْ بِصِحَّةِ رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَيُصَدِّقُونَهُ فِي قُلُوبِهِمْ، لَكِنْ يُنْكِرُونَ هَذَا فِي ظَاهِرِهِمْ، قَالَ ﷻ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

وَقَالَ أَبُو طَالِبٍ عَمُّ النَّبِيِّ ﷺ:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بَأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ ... مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ البَرِيَّةِ دِينًا
لَوْلَا المَلَامَةُ أَوْ حَذَارِ مَسَبَّةٍ ... لَرَأَيْتَنِي سَمْحًا بِذَاكَ مُبِينًا[١]

فَهُوَ مُعْتَرِفٌ بِقَلْبِهِ بَأَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، وَأَنَّ دِينَهُ أَزْكَى أَدْيَانِ الخَلِيقَةِ، لَكِنْ مَنَعَهُ مِنَ التَّصْرِيحِ بِذَلِكَ وَالنُّطْقِ بِذَلِكَ مُجَامَلَةُ قَوْمِهِ، لَوْ آمَنَ بِالرَّسُولِ لَتَبَرَّأَ مِنْ دِينِ قَوْمِهِ، وَهُوَ لَا يُرِيدُ هَذَا، مَنَعَتْهُ النَّخْوَةُ الجَاهِلِيَّةُ وَالحَمِيَّةُ الجَاهِلِيَّةُ مِنْ أَنْ يُصَرِّحَ وَيُظْهِرَ مَا فِي قَلْبِهِ، حَتَّى وَهُوَ فِي سَكَرَاتِ المَوْتِ يَقُولُ لَهُ الرَّسُولُ ﷺ: «يَا عَمِّ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، فَيَقُولُ لَهُ أَبُو جَهْلٍ وَمَنْ مَعَهُ:

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٤٢)، وسمط النجوم العوالي (١/ ٣٩٤)، والإصابة في تمييز الصحابة (٧/ ٢٣٦).

«أَتتْرُكُ دِينَ عَبْدِ المُطَّلِبِ؟»، وَفِي النِّهَايَةِ قَالَ: «هُوَ عَلَى دِينِ عَبْدِ المطَّلِبِ»[١]، وَمَاتَ وَلَمْ يَقُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَكَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ مَعَ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ بِقَلْبِهِ مُعْتَرِفٌ بِذَلِكَ، كَمَا فِي أَشْعَارِهِ المَوْجُودَةِ بَيْنَ أَيْدِينَا وَالتِي فِيهَا التَّصْرِيحُ والإِقْرَارُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ ﷺ حَقٌّ، وَأَنَّ دِينَ المُشْرِكِينَ بَاطِلٌ، لَكِنَّهُ لَمْ يَشْهَدْ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، أَبَى أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؛ لِأَنَّ مَعْنَى ذَلِكَ خَلْعُ عِبَادَةِ الأَصْنَامِ التِي هِيَ دِينُ قَوْمِهِ. فَهَذَا فِيهِ أَنَّ الحَمِيَّةَ الجَاهِلِيَّةَ قَدْ تَحْمِلُ الإِنْسَانَ عَلَى الكُفْرِ - والعِيَاذُ بِاللَّهِ - قَالَ ﷻ: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: ٢٦]، فَالإِنْسَانُ لَا يُؤْثِرُ عَلَى الدِّينِ الحَقِّ شَيْئًا مَهْمَا كَلَّفَهُ ذَلِكَ، وَلَا يَخْشَى فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ، هَذَا هُوَ الوَاجِبُ.

الحَاصِلُ: أَنَّهُ لَابُدَّ مِن اجْتِمَاعِ الإِسْلَامِ فِي الظَّاهِرِ، وَالإِيمَانِ فِي القَلْبِ، فَإِنِ انْفَرَدَ أَحَدُهُمَا لَمْ يَكُنِ الإِنْسَانُ مُسْلِمًا مُؤْمِنًا وَلَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ.

وَفِي هَذَا الحَدِيثِ أَنَّ أَرْكَانَ الإِيمَانِ التِي يُبْنَى عَلَيْهَا سِتَّةٌ، وَأَمَّا بَقِيَّةُ الأَعْمَالِ فَهِيَ مُكَمِّلَاتٌ لِهَذِهِ السِّتَّةِ أَوْ مُتَمِّمَاتٌ لَهَا، كَالصِّدْقِ فِي الحَدِيثِ، وَالأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ المنْكَرِ وَصِلَةِ الأَرْحَامِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الأَعْمَالِ التِي هِيَ خَارِجُ هَذِهِ السِّتَّةِ فَهِيَ تَابِعَةٌ لَهَا وَمُكَمِّلَاتٌ لَهَا.

الرُّكْنُ الأَوَّلُ: الإِيمَانُ بِاللَّهِ ﷻ بِأَنْ تُؤْمِنَ بِأَنَّ اللهَ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّهُ هُوَ المُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ دُونَ غَيْرِهِ، وَتُؤْمِنَ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَالإِيمَانُ بِاللَّهِ يَشْمَلُ أَنْوَاعَ التَّوْحِيدِ الثَّلَاثَةَ:

- **تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ.**

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٠)، ومسلم (٢٤) من حديث المسيب بن حزن رضي الله عنه.

• وتَوْحِيدُ الأُلُوهِيَّةِ.

• وَتَوْحِيدُ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ.

فَلَا يَكُونُ الإِنْسَانُ مُؤْمِنًا إِلَّا بِتَحْقِيقِ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ، وَلَيْسَ الإِيمَانُ بِاللَّهِ -كَمَا يَقُولُ بَعْضُهُمْ أَوْ كَثِيرٌ مِمَّنْ لَا عِلْمَ عِنْدَهُ-: الإِيمَانُ بِاللَّهِ هُوَ الإِيمَانُ بِوُجُودِ اللَّهِ. فَإِنَّ هَذَا لَيْسَ هُوَ الإِيمَانَ بِاللَّهِ، فَلَا يَكْفِي الإِيمَانُ بِوُجُودِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَإِنَّمَا الإِيمَانُ بِاللَّهِ يَشْمَلُ الإِيمَانَ بِرُبُوبِيَّتِهِ، وَالإِيمَانَ بِأُلُوهِيَّتِهِ، وَالإِيمَانَ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَإِنْ نَقَصَ شَيْءٌ مِنْهَا لَمْ يَكُنْ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ.

فَالإِيمَانُ بِرُبُوبِيَّتِهِ: أَنْ تُؤْمِنَ بِأَنَّهُ هُوَ المُنْفَرِدُ بِالخَلْقِ وَالتَّدْبِيرِ وَالإِحْيَاءِ وَالإِمَاتَةِ، وَالتَّصَرُّفِ فِي الكَوْنِ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي ذَلِكَ، هَذَا تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ، وَهَذَا قَلَّ مَنْ يَجْحَدُهُ مِنَ الخَلْقِ، فَإِنَّ كُلَّ الخَلْقِ مُؤْمِنَهُمْ وَكَافِرَهُمْ يُقِرُّ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، كَمَا قَالَ اللهُ عَجَّلَ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت:٢٥]، وَقَالَ اللهُ عَجَّلَ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وَقَالَ: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٤، ٨٥]، وَقَالَ: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝٨٦ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٦، ٨٧]، وَقَالَ: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ [يونس: ٣١]، فَهُمْ مُقِرُّونَ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، ﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَهُمْ لَا يَجْحَدُونَ هَذَا مَعَ أَنَّهُمْ مُشْرِكُونَ،

كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٦]، يُؤْمِنُونَ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ فَقَطْ، وَهَذَا لَا يَكْفِي، بَلْ لَابُدَّ مِنَ الإِيمَانِ بِتَوْحِيدِ الأُلُوهِيَّةِ، أَيْ: بِأَنَّ العِبَادَةَ لَا يَسْتَحِقُّهَا إِلَّا اللهُ ﷻ، والأُلُوهِيَّةُ تَعْنِي العُبُودِيَّة.

وَهَذَا هُوَ مَحَطُّ الخِلَافِ بَيْنَ الأُمَمِ وَالرُّسُلِ، فَكَثِيرٌ مِنَ الأُمَمِ يَعْتَرِفُونَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الخَالِقُ الرَّازِقُ، وَيَعْتَرِفُونَ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، لَكِنَّهُمْ يُشْرِكُونَ فِي تَوْحِيدِ الأُلُوهِيَّةِ، فَيَعْبُدُونَ مَعَ اللَّهِ غَيْرَهُ، فَيَذْبَحُونَ لَهُ، وَيَنْذُرُونَ لَهُ، وَيَسْتَغِيثُونَ بِهِ، سَواءً كَانَ هَذَا الغَيْرُ صَنَمًا أَوْ شَجَرًا أَوْ حَجَرًا أَوْ قَبْرًا أَوْ جِنًّا أَوْ إِنْسًا، فَهَذَا شِرْكٌ فِي تَوْحِيدِ الأُلُوهِيَّةِ، وَهُوَ عِبَادَةُ غَيْرِ اللَّهِ مَعَ اللَّهِ ﷻ.

وَكَذَلِكَ حَدَثَ فِي القُرُونِ المتَأَخِّرَةِ بَعْدَ القُرُونِ المفَضَّلَةِ مَنْ يَجْحَدُ تَوْحِيدَ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ مِنَ الفِرَقِ الضَّالَّةِ، مِنْ جَهْمِيَّةٍ[١]، وَمُعْتَزِلَةٍ[٢]،

---

(١) هم أتباع الجهم بن صفوان أبو محرز الراسبي، مولاهم السمرقندي، الضال المبتدع رأس الجهمية هلك في زمان صغار التابعين، وقد زرع شرًّا عظيمًا، وهو رأس في التعطيل، قُتِل سنة ثمان وعشرين ومائة، قتله سَلْم بن أحوز. انظر: الملل والنحل للشهرستاني (١/ ٨٦)، والفرق بين الفرق (ص١٩٩)، وميزان الاعتدال للذهبي (٢/ ١٥٩)، والتعريفات للجرجاني (ص١٠٨)، وفتح الباري (١٣/ ٣٤٥).

(٢) هي إحدى الفرق الضالة المخالفة لأهل السنة والجماعة، ورأس هذه الفرقة واصل بن عطاء الغزال، كان تلميذاً في مجلس الحسن البصري، فأظهر القول بالمنزلة بين المنزلتين وأن صاحب الكبيرة ليس بمؤمن ولا بكافر، فطرده الحسن من مجلسه، وانضم إليه عمرو بن عبيد، واعتزلا مجلس الحسن، فسموا بالمعتزلة لذلك، ويلقبون بالقدرية لإسنادهم أفعال العباد إلى قدرتهم وإنكارهم القدر فيها.

وقد افترقت المعتزلة إلى فرق شتى يجمعهم القول بنفي الصفات، والقول بخلق القرآن، وأن العبد يخلق فعل نفسه، ولهم أصول خمسة جعلوها بمنزلة أركان الإيمان عند أهل السنة، وهي:
=

وَأَشَاعِرَة[(١)]، وَمَنْ سَارَ فِي رِكَابِهِمْ، يَجْحَدُونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ:

- **فَمِنْهُمْ مَنْ يَجْحَدُ الأَسْمَاءَ وَالصِّفَاتِ.**
- **وَمِنْهُمْ مَنْ يُقِرُّ بِالأَسْمَاءِ وَيُنْكِرُ الصِّفَاتِ.**
- **وَمِنْهُمْ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَ الصِّفَاتِ.**

وَالكُلُّ سَوَاءٌ، لَابُدَّ مِنَ الإِيمَانِ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ، كَمَا جَاءَ عَنْ غَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: «**وَمَذْهَبُ السَّلَفِ أَنَّهُمْ يَصِفُونَ اللهَ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ ﷺ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ**»[(٢)]، فَمَنْ جَحَدَ الأَسْمَاءَ وَالصِّفَاتِ أَوْ شَيْئًا مِنْهَا مَعَ العِلْمِ لَمْ يَكُنْ

=

التوحيد، والعدل، والمنزلة بين المنزلتين، والوعد والوعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وإنها أرادوا بهذه المسميات معاني باطلة.

انظر: الملل والنحل (١/ ٣٠-٣٢)، والفرق بين الفرق (ص١٨، ٩٣، ٩٤)، والبدء والتاريخ (٥/ ١٤٢)، وسير الأعلام (٥/ ٤٦٤)، ووفيات الأعيان (٦/ ٨).

(١) نسبة إلى أبي الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم الأشعري، ولد سنة ستين ومائتين، نشأ على مذهب المعتزلة، وتتلمذ على يد أبي علي الجبائي ثم ترك مذهبهم وتبرأ منه، وسلك طريقة ابن كلاب وانتشر مذهبه ثم رجع عنه إلى مذهب أهل الحديث وانتسب للإمام أحمد، وألف في مذهب أهل السنة والجماعة: الإبانة، والموجز، ورسائل الثغر، إلا أنه بقيت عليه بقايا من مذهب ابن كلاب، وتوفي ببغداد سنة أربع وعشرين وثلاثمائة، قال الذهبي: «ويقال بقي إلى سنة ثلاثين وثلاثمائة». اهـ.

انظر: تاريخ بغداد (١١/ ٣٤٦)، ووفيات الأعيان (٣/ ٢٨٤)، وسير الأعلام (١٥/ ٨٥)، وشذرات الذهب (٢/ ٣٠٣)، والبداية والنهاية (١١/ ١٨٧).

(٢) انظر: اللمعة لابن قدامة (ص٩)، وتاريخ الإسلام للذهبي (ص٨٧)، وبيان تلبيس الجهمية (١/ ٣١)، ومجموع الفتاوى (٥/ ٢٦)، واجتماع الجيوش الإسلامية (ص١٣٢)، والصواعق المرسلة (٢/ ٤٢٦).

مُؤْمِنًا بِاللَّـهِ؛ لأَنَّـهُ جَحَدَ قِسْمًا مِنْ أَقْسَامِ التَّوْحِيدِ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَعْذُورًا بِجَهْلٍ أَوْ تَقْلِيدٍ أَوْ تَأْوِيلٍ، فَهَذَا يَكُونُ ضَالًّا لَا كَافِرًا.

الرُّكْنُ الثَّانِي: الإِيمَانُ بِالمَلَائِكَةِ، فَتُؤْمِنُ بِأَنَّهُمْ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللَّـهِ، وَمِنْ جُنُودِهِ خَلَقَهُمُ اللهُ مِنَ النُّورِ، كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ: «**خُلِقَتْ المَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ**»[(١)].

والمَلَائِكَةُ: جَمْعُ مَلَكٍ، وَالمَلَكُ: هُوَ الرَّسُولُ؛ لِأَنَّ المَلَائِكَةَ رُسُلٌ مِنَ اللَّـهِ عَجَّلَّ إِلَى عِبَادِهِ، قَالَ اللهُ عَجَّلَّ: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، وَهُمْ أَصْنَافٌ مُصَنَّفَةٌ كُلُّ صِنْفٍ لَهُ عَمَلٌ خَاصٌّ وَكَلَهُ اللهُ إِلَيْهِ، فَجِبْرِيلُ مُوَكَّلٌ بِالوَحْيِ، وَمِيكَائِيلُ مُوَكَّلٌ بِالقَطْرِ وَالنَّبَاتِ، وَإِسْرَافِيلُ مُوَكَّلٌ بِالنَّفْخِ فِي الصُّورِ، وَمِنْهُمْ مَلَكُ المَوْتِ مُوَكَّلٌ بِقَبْضِ الأَرْوَاحِ[(٢)]، وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ مُوَكَّلٌ بِالأَجِنَّةِ فِي بُطُونِ الأُمَّهَاتِ، يَنْفُخُ فِيهَا

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٩٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه الطبراني في الكبير (١٢٠٦١)، وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٧٠٠، ٧٠١)، وابن أبي شيبة في العرش (ص٨٦-٨٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «... فَمَنْ هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا إِسْرَافِيلُ خَلَقَهُ اللهُ يَوْمَ خَلَقَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، صافًا قَدَمَيْهِ لَا يَرْفَعُ طَرْفَهُ، بَيْنَهُ وَبَيْنَ الرَّبِّ سَبْعُونَ نُورًا، مَا مِنْهَا مِنْ نُورٍ يَكَادُ يَدْنُو مِنْهُ إِلَّا احْتَرَقَ، بَيْنَ يَدَيْهِ لَوْحٌ، فَإِذَا أَذِنَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي شَيْءٍ فِي السَّمَاءِ، أَوْ فِي الأَرْضِ، ارْتَفَعَ ذَلِكَ الوَحْيُ، فَضَرَبَ جَبْهَتَهُ، فَيَنْظُرُ فَإِنْ كَانَ مِنْ عَمَلِي أَمَرَنِي بِهِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ عَمَلِ مِيكَائِيلَ أَمَرَهُ بِهِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ عَمَلِ مَلَكِ المَوْتِ أَمَرَهُ بِهِ، فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ، وَعَلَى أَيِّ شَيْءٍ أَنْتَ؟ قَالَ: عَلَى الرِّيحِ وَالجُنُودِ قُلْتُ: عَلَى أَيِّ شَيْءٍ مِيكَائِيلُ؟ قَالَ: عَلَى النَّبَاتِ وَالقَطْرِ قُلْتُ: عَلَى أَيِّ شَيْءٍ مَلَكُ المَوْتِ؟ قَالَ: عَلَى قَبْضِ الأَنْفُسِ».

الرُّوحَ وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ يَكْتُبُهُنَّ[(١)]، وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ مُوَكَّلٌ بِحِفْظِ أَعْمَالِ بَنِي آدَمَ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢]، فَالمَلَائِكَةُ لَهُمْ أَعْمَالٌ مُوَكَّلُونَ بِهَا يَقُومُونَ بِهَا، وَهُمْ جُنْدٌ مِنْ جُنْدِ اللَّهِ، وَهُمْ مِنْ عَالَمِ الغَيْبِ الَّذِينَ لَا نَرَاهُمْ وَلَكِنَّنَا نُؤْمِنُ بِوُجُودِهِمْ، وَنُؤْمِنُ بِأَعْمَالِهِمْ التِي ذَكَرَ اللهُ ﷻ أَنَّهُمْ يَقُومُونَ بِهَا بِأَمْرِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لَا كَمَنْ انْحَرَفَ فِي المَلَائِكَةِ، فَمِنْهُمْ مَنْ عَادَى بَعْضَهُمْ، كَاليَهُودِ، يُعَادُون جِبْرِيلَ عليه السلام، وَيَقُولُون: جِبْرِيلُ عَدُوُّنَا، وَلَوْ كَانَ الذِي نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ غَيْرَ جِبْرِيلَ لَآمَنَّا بِهِ، لَكِنْ لَمَّا كَانَ الذِي نَزَلَ عَلَيْهِ جِبْرِيل فَنَحْنُ لَا نُؤْمِنُ بِهِ؛ لِأَنَّ جِبْرِيلَ عَدُوُّنَا. قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٩٧ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٧، ٩٨][(٢)].

وَمِنَ الشِّيعَةِ أَيْضًا مَنْ يُعَادِي جِبْرِيلَ تَأَثُّرًا بِاليَهُودِ، فَيَقُولُ: إِنَّ الرِّسَالَةَ

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ مَلَكًا فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ، وَرِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ، فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ لَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجَنَّةِ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ كِتَابُهُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، وَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ».

(٢) انظر: تفسير عبدالرزاق (١/ ٥٢، ٥٣)، وتفسير الطبري (١/ ٤٣١-٤٣٦)، وتفسير ابن أبي حاتم (١/ ١٨٠)، وزاد المسير (١/ ١١٧)، وتفسير ابن كثير (١/ ١٣٠)، وفتح القدير (٣/ ٧٧).

لِعَلِيٍّ وَلَكِنَّ جِبْرِيلَ خَانَ وَأَعْطَاهَا لمحمَّدٍ. وَشَاعِرُهُمْ يَقُولُ: خَانَ الأَمِينُ وَصَدَّهَا عَنْ حَيْدَرَةِ.

وَمِنَ النَّاسِ - خُصُوصًا المشْرِكِين - مَنْ يَقُولُ: الملَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ - تَعَالَى اللهُ عَمَّا يَقُولُونَ - قَالَ ﷻ: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ﴾ [الزخرف: ١٩]، وَقَالَ ﷻ: ﴿ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴾ [الطور: ٣٩]، ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [النَّحل: ٥٨]، ثُمَّ قَالَ: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [النَّحل: ٦٢]، وَقَالَ ﷻ: ﴿ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الصَّافَّات: ١٥٣-١٥٥]، فَإِذَا كُنْتُمْ لَا تَرْضَوْنَ البَنَاتِ لأَنْفُسِكُمْ وَتَكْرَهُونَهُنَّ فَكَيْفَ تَنْسِبُونَهُنَّ إِلَى اللَّهِ ﷻ؟ مَعَ أَنَّ اللهَ لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا، وَلَكِنْ هَذَا مِنْ بَابِ الرَّدِّ عَلَيْهِمْ، وَبَيَانِ فَسَادِ قَوْلِهِم، كَمَا أَنَّ النَّصَارَى يَقُولُونَ: المسِيحُ ابْنُ اللَّهِ. فَنَسَبُوا للَّهِ ﷻ الابْنَ، وَالمشْرِكُونَ نَسَبُوا لَهُ البَنَاتِ، وَاللهُ ﷻ لَمْ يَتَّخِذْ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا؛ لأَنَّ الوَلَدَ جُزْءٌ مِنَ الوَالِدِ وَشَبِيهٌ بِالوَالِدِ، وَاللهُ ﷻ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ وَلَا شَبِيهٌ، وَهُوَ الغَنِيُّ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- لَيْسَ بِحَاجَةٍ إِلَى الأَوْلَادِ، إِنَّمَا هَذَا فِي البَشَرِ، وَالمَخْلُوقَاتُ هِيَ التِي بِحَاجَةٍ إِلَى الأَوْلَادِ.

الرُّكْنُ الثَّالِثُ: الإِيمَانُ بِالكُتُبِ المنَزَّلَةِ، فَتُؤْمِنُ بِأَنَّ اللهَ أَنْزَلَ كُتُبًا عَلَى رُسُلِهِ، وَهِيَ مِنْ كَلَامِهِ وَوَحْيِهِ، وَفِيهَا شَرْعُهُ وَأَمْرُهُ وَنَهْيُه، أَنْزَلَهَا عَلَى رُسُلِهِ لِأَجْلِ بَيَانِ الحَقِّ وَالنَّهْيِ عَنْ البَاطِلِ، وَلِأَجْلِ هِدَايَةِ النَّاسِ، وَهِيَ كُتُبٌ كَثِيرَةٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ، وَالذِي سَمَّى اللهُ مِنْهَا: التَّوْرَاةُ وَالزَّبُورُ وَالإِنْجِيلُ وَالقُرْآنُ وَصُحُفُ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى، فَنُؤْمِنُ بِالكُتُبِ مَا سَمَّى اللهُ مِنْهَا وَمَا لَمْ

يُسَمِّ، وَأَعْظَمُهَا القُرْآنُ الكَرِيمُ.

الرُّكْنُ الرَّابِعُ: الإِيمَانُ بِالرُّسُلِ، فَتُؤْمِنُ بِرُسُلِ اللَّهِ مِنْ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ، مَنْ سَمَّى اللهُ وَمَنْ لَمْ يُسَمِّ مِنْهُمْ، تُؤْمِنُ بِهِمْ جَمِيعًا، فَمَنْ جَحَدَ وَاحِدًا فَقَدْ جَحَدَ الجَمِيعَ، وَيَكُونُ كَافِرًا، وَلَوْ آمَنَ بِبَعْضِهِمْ وَكَفَرَ بِبَعْضِهِمْ يَكُونُ كَافِرًا، فَالذِي يُؤْمِنُ بِهِمْ وَيَكْفُرُ بِعِيسَى وَمُحَمَّدٍ ﷺ كَاليَهُودِ، فَهُوَ كَافِرٌ، وَمَنْ يُؤْمِنْ بِهِمْ وَيُنْكِرْ رِسَالَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ كَالنَّصَارَى، فَهُوَ كَافِرٌ بِالجَمِيعِ، فَاللهُ لَا يَقْبَلُ الإِيمَانَ بِالبَعْضِ وَالكُفْرَ بِالبَعْضِ الآخَرِ، هَذَا مِنَ التَّفْرِيقِ بَيْنَ الرُّسُلِ، قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ [النِّسَاء: ١٥٠، ١٥١].

وَأَوَّلُ المُرْسَلِينَ نُوحٌ عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَأَمَّا الأَنْبِيَاءُ فَآدَمُ نَبِيٌّ وَمَنْ جَاءَ بَعْدَهُ مِنَ الأَنْبِيَاءِ، فَبَيْنَ آدَمَ وَنُوحٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ أَنْبِيَاءُ، لَكِنَّ أَوَّلَ الرُّسُلِ نُوحٌ عليه السلام، أَرْسَلَهُ اللهُ ﷻ إِلَى قَوْمِهِ لَمَّا عَبَدُوا الصَّالِحِينَ، وَآخِرُهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ، قَالَ ﷻ: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النِّسَاء: ١٦٣].

وَالإِيمَانُ بِالرُّسُلِ كُلِّهِمْ إِيمَانٌ مُجْمَلٌ، وَالإِيمَانُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ إِيمَانٌ مُفَصَّلٌ؛ لِأَنَّهُ هُوَ نَبِيُّنَا وَرَسُولُنَا، فَنُؤْمِنُ بِمَا جَاءَ بِهِ عَلَى التَّفْصِيلِ.

الرُّكْنُ الخَامِسُ: الإِيمَانُ بِاليَوْمِ الآخِرِ، وَهُوَ يَوْمُ القِيَامَةِ، يُسَمَّى اليَوْمَ الآخِرَ لِأَنَّهُ بَعْدَ الدُّنْيَا، وَيُسَمَّى يَوْمَ القِيَامَةِ لِقِيَامِ النَّاسِ فِيهِ مِنْ قُبُورِهِمْ لِرَبِّ العَالَمِينَ، وَيُسَمَّى يَوْمَ البَعْثِ لِأَنَّ النَّاسَ يُبْعَثُونَ فِيهِ مِنْ قُبُورِهِمْ، وَيُسَمَّى

النُّشُورَ، وَالنُّشُورُ هُوَ البَعْثُ، فَلَهُ أَسْمَاءٌ كَثِيرَةٌ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى عَظَمَتِهِ.

وَالإِيمَانُ بِاليَوْمِ الآخِرِ هُوَ التَّصْدِيقُ بِحُصُولِهِ وَوُقُوعِهِ، ثُمَّ الاسْتِعْدَادُ لَهُ، فَلَا يَكْفِي أَنْ تُصَدِّقَ بِهِ وَتَجْزِمَ بِهِ، بَلْ لَابُدَّ مِنَ الاسْتِعْدَادِ لَهُ، وَتَقْدِيمِ الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَالتَّوْبَةِ مِنَ الأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ، وَالإِكْثَارِ مِنَ الحَسَنَاتِ، فَأَنْتَ تَسْتَعِدُّ لِهَذَا اليَوْمِ؛ لأَنَّهُ يَوْمٌ لا رَيْبَ فِيهِ، قَالَ إِبْرَاهِيمُ ـ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ ـ فِي دُعَائِهِ: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٧-٨٩]، فَهُوَ يَوْمٌ عَظِيمٌ ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧]، وَفِي هَذَا اليَوْمِ: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّا﴾ [المعارج: ١١-١٥]، فَلَا يُنْجِيهِ مِنْ هَذَا إِلَّا العَمَلُ الصَّالِحُ وَتَرْكُ العَمَلِ السَّيِّئِ.

هَذَا هُوَ المَقْصُودُ بِالإِيمَانِ بِاليَوْمِ الآخِرِ، فَمَنْ قَالَ: إِنَّه لَيسَ هُنَاكَ بَعْثٌ وَإِنَّمَا هِيَ الحَيَاةُ الدُّنْيَا فَقَطْ. فَهَذَا كَافِرٌ؛ لِأَنَّهُ مُكَذِّبٌ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِإِجْمَاعِ المُسْلِمِينَ، وَلِمَا هُوَ مَعْلُومٌ مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ، فَلَا شَكَّ فِي كُفْرِ مَنْ أَنْكَرَ البَعْثَ وَالنُّشُورَ؛ وَلِهَذَا قَالَ ﷻ: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧]، فَاللهُ أَمَرَ رَسُولَهُ أَنْ يُقْسِمَ بِرَبِّهِ أَنَّهُ سَيَبْعَثُ عِبَادَهُ، وَقَوْلُهُ: ﴿زَعَمَ﴾ الزَّعْمُ هُوَ الكَذِبُ، يَعْنِي: كَذَبُوا فِي قَوْلِهِمْ هَذَا، وَقَالَ ﷻ: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩]، وَقَالَ ﷻ: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]، وَقَالَ: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ

إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [المؤمنون: ٣٥-٣٧].

هَكَذَا مَقَالَةُ الكُفَّارِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا، يُنْكِرُونَ البَعْثَ، وَلَيْسَ لَهُمْ حُجَّةٌ إِلَّا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: كَيْفَ إِذَا مَاتَ النَّاسُ وَصَارُوا تُرَابًا أَنَّهُمْ يُبْعَثُونَ؟ فَهَذَا مُسْتَحِيلٌ! ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]، سُبْحَانَ اللَّهِ! هُمْ مِنْ قَبْلُ كَانُوا غَيْرَ مَوْجُودِينَ أَصْلاً، ثُمَّ خَلَقَهُمُ اللهُ ﷻ، فَالَّذِي خَلَقَهُمْ فِي البِدَايَةِ قَادِرٌ مِنْ بَابِ أَوْلَى عَلَى إِعَادَتِهِم، ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩]، فَالقُرْآنُ مَمْلُوءٌ بِالرَّدِّ عَلَى مُنْكِرِي البَعْثِ.

وَأَيْضًا أَيُّهُمَا أَعْظَمُ: خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَمْ خَلْقُ الإِنْسَانِ؟ لَا شَكَّ أَنَّ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَعْظَمُ مِنْ خَلْقِ الإِنْسَانِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، فَالَّذِي قَدَرَ عَلَى خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ الإِنْسَانَ مِنْ بَابِ أَوْلَى.

ثُمَّ أَيْضًا اللهُ ﷻ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، تَكُونُ الأَرْضُ قَاحِلَةً جَرْدَاءَ لَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ، فَإِذَا نَزَلَ عَلَيْهَا المَطَرُ فَإِنَّهَا تَتَحَرَّكُ بِالنَّبَاتِ، فَهَذَا الحَبُّ المَيِّتُ وَالبَذْرُ المَيِّتُ المُتَفَرِّقُ فِي الأَرْضِ يَحْيَا وَيَنْبُتُ، وَيَكُونُ نَبَاتًا وَأَشْجَارًا مُثْمِرَةً وَزُرُوعًا وَنَخِيلاً وَأَعْنَابًا وَأَنْوَاعًا مِنَ النَّبَاتَاتِ وَهِيَ كَانَتْ فِي الأَوَّلِ مَيْتَةً، أَلَيْسَ الذِي أَحْيَا الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَادِرًا عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الإِنْسَانَ بَعْدَ مَوْتِهِ؟ فَهَذَا وَاقِعٌ يُشَاهِدُهُ النَّاسُ أَنَّ الأَرْضَ المَيْتَةَ اليَابِسَةَ الهَامِدَةَ الخَاشِعَةَ إِذَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهَا المَاءَ اخْضَرَّتْ وَازْدَهَرَتْ بِالنَّبَاتِ، كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ

هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج: ٥-٧]، فَهَذَا شَاهِدٌ يَرَاهُ النَّاسُ وَلَا يُنْكِرُونَهُ، مَنِ الَّذِي قَدَرَ عَلَى إِحْيَاءِ هَذَا النَّبَاتِ؟ وَمَنِ الَّذِي أَخْرَجَ مِنْ هَذَا الحَبِّ اليَابِسِ الوَرَقَ وَالأَغْصَانَ وَالثِّمَارَ؟ هُوَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَإِذَا كَانَ يَبْعَثُ هَذَا النَّبَاتَ بَعْدَ مَوْتِهِ، فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ مَنْ فِي القُبُورِ، لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَأَيْضًا لَوْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ بَعْثٌ وَجَزَاءٌ عَلَى الأَعْمَالِ لَكَانَ خَلْقُ الخَلْقِ عَبَثًا، كَيْفَ يَخْلُقُهُمْ وَيَعْمَلُونَ الأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ أَوِ الأَعْمَالَ الكُفْرِيَّةَ ثُمَّ يَمُوتُونَ وَيُتْرَكُونَ؟ هَذَا لَا يَلِيقُ بِعَدْلِ اللَّهِ ﷻ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]، تَعَالَى اللهُ عَنْ هَذَا، فَاللهُ ﷻ لَابُدَّ أَنْ يَبْعَثَ النَّاسَ وَيُمَيِّزَ المُؤْمِنِينَ مِنَ الكُفَّارِ، وَيُجَازِيَ المُؤْمِنَ بِإِيمَانِهِ، وَيُجَازِيَ الكَافِرَ بِكُفْرِهِ، ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٧، ٢٨]، كُلُّهُمْ يَمُوتُونَ وَلَا يُبْعَثُونَ وَلَا يُجَازُونَ عَلَى أَعْمَالِهِمْ؟ حَاشَا وَكَلَّا، ثُمَّ إِنَّ اللهَ هَدَّدَ الكُفَّارَ وَالمُشْرِكِينَ وَالعُصَاةَ بِأَنَّهُمْ سَيُرْجَعُونَ إِلَى رَبِّهِمْ وَيُحَاسَبُونَ وَيُجَازُونَ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ البَعْثَ لَابُدَّ مِنْهُ، وَأَنَّهُ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ، وَالدُّنْيَا دَارُ عَمَلٍ، وَالآخِرَةُ دَارُ جَزَاءٍ، هَذِهِ حِكْمَةُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ هُنَاكَ دَارًا أُخْرَى يُجَازَى فِيهَا المُحْسِنُ بِإِحْسَانِهِ

والمُسِيءُ بِإِسَاءَتِهِ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ بَعْثٌ لَصَارُوا كُلُّهُمْ سَواءَ المحْسِنُ وَالمسِيءُ، وَالمؤْمِنُ وَالكَافِرُ، لَيْسَ هُنَاكَ فَرْقٌ فِي الدُّنْيَا، إِنَّمَا الفَرْقُ فِي الآخِرَةِ، قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ [الرُّوم: ١٤-١٦]، وَقَالَ: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الشورى: ٧]، يَتَفَرَّقُونَ فِي البَعْثِ، أَمَّا فِي الدُّنْيَا فَهُمْ سَواءٌ، يَعِيشُونَ كُلُّهُمْ، وَرُبَّمَا يَكُونُ الكَافِرُ أَحْسَنَ حَالاً مِنَ المُسْلِمِ مِنْ نَاحِيَةِ الثَّرْوَةِ وَالمَالِ وَالصِّحَّةِ وَهُو كَافِرٌ، وَالمؤْمِنُ يُبتَلَى وَيجُوعُ وَيَمْرَضُ وَيَعْرِضُ لَهُ الأَشْيَاءُ المؤْذِيَةُ وَيَموتُ عَلَى هَذِهِ الحَالِ؛ لِأَنَّ اللهَ ادَّخَرَ لَهُ الجَزَاءَ فِي الآخِرَةِ، فَيُعْطِيه جَزَاءَ عَمَلِهِ فِي الآخِرَةِ، لَا يُمكِنُ أَنْ يُضيِّعَ عَمَلَهُ أَبدًا.

فَهَذِهِ مِنْ أَدِلَّةِ البَعْثِ، وَهِيَ أَدِلَّةٌ عَقْلِيَّةٌ قُرْآنِيَّةٌ عَلَى البَعْثِ، وَأَدِلَّةُ البَعْثِ كَثِيرَةٌ، لَكِنْ مَعَ هَذَا أَنْكَرَهُ الكُفَّارُ والمَلَاحِدَةُ، وَبَعْضُ النَّاسِ يُؤْمِنُ بِهِ لَكِنْ لَا يَسْتَعِدُّ لَهُ فَكَأَنَّهُ يُنْكِرُهُ.

وَالمُرَادُ بِاليَوْمِ الآخِرِ: مَا بَعْدَ المَوْتِ كُلُّهُ هُوَ اليَوْمُ الآخِرُ، فَإِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ وَفَاضَتْ رُوحُهُ دَخَلَ فِي اليَوْمِ الآخِرِ وَخَرَجَ مِنَ الدُّنْيَا.

وَأَوَّلُ ذَلِكَ: أَنَّ الميتَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَسُوِّيَ عَلَيْهِ التُّرَابُ وانْصَرَفَ عَنْهُ النَّاسُ «وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِم، يَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ وَيُجْلِسَانِهِ، وَيَسْأَلَانِهِ مَنْ رَبُّكَ؟ ما دِينُكَ؟ مَنْ نَبِيُّكَ؟»[1] ثَلَاثَةُ أَسْئِلَةٍ، فَإِنْ

---

(١) حديث سؤال الملكين، رواه البخاري (١٣٣٨)، ومسلم (٢٨٧٠) من حديث أنس ﷺ، ومسلم(٢٨٧١) من حديث البراء بن عازب ﷺ.

أَجَابَ عَنْهَا بِجَوَابٍ صَحِيحٍ نَجَا وَفَازَ وَأَفْلَحَ، وَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعِ الجَوَابَ خَابَ وَخَسِرَ، وَضَلَّ سَعْيُهُ فِي الحَيَاةِ الدنْيَا.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: كَيْفَ جَاءَ المَلَكَانِ إِلَيْهِ فِي قَبْرِهِ وَنَحْنُ لَا نَرَاهُمَا؟ الجَوَابُ: اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَمَّا أَنْتَ فَقَدْ غُيِّبَ عَنْكَ كَثِيرٌ مِنَ الأُمُورِ، فَالمَلَكَانِ يَأْتِيَانِهِ وَأَنْتَ لَا تَرَاهُمَا، وَهَلْ أَنْتَ تَرَى رُوحَكَ التِي تَدْخُلُ فِي جَسَدِكَ؟ هَلْ تَرَى كُلَّ شَيْءٍ؟ هُنَاكَ أَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ لَا تَرَاهَا وَهِي مَوْجُودَةٌ هَلْ تَرَى العَقْلَ الَّذِي يُمَيِّزُكَ عَلَى غَيْرِكَ؟ مَا كُلُّ شَيْءٍ لَا تَرَاهُ لَيْسَ مَوْجُودًا، هَذَا كَلَامُ المادِّيينَ الطَبَائِعِيِّينَ، أَمَّا أَهْلُ الإِيمَانِ فَإِنَّهُمْ يَتَّسِعُ إِيمَانُهُمْ لِكُلِّ مَا وَرَدَتْ بِهِ الأَخْبَارُ الصَّحِيحَةُ، وَلَا يَتَدَخَّلُونَ فِيهِ بِعُقُولِهِمْ.

فَالمَلَكَانِ يَأْتِيَانِهِ وَيُجْلِسَانِهِ وَيَسْتَنْطِقَانِهِ: مَنْ رَبُّكَ؟ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ المؤْمِنُ: رَبِّيَ اللهُ، وَدِينِي الإِسْلَامُ، وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ ﷺ، فَيُنَادِي مُنَادٍ: «أَنْ صَدَقَ عَبْدِي فَافْرِشُوه مِنَ الجَنَّةِ، وَوَسِّعُوا لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِه، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الجَنَّةِ»، فَيَأْتِيه مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا وَيَرَى مَنْزِلَهُ فِي الجَنَّةِ، فَيَقُولُ: «يَا رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي»[1]، فَيَصِيرُ قَبْرُهُ رَوْضَةً مِنْ رِيَاضِ الجَنَّةِ، وَإِنْ كُنَّا لَا نُشَاهِدُ هَذَا.

وَقَدْ يُشَاهِدُهُ بَعْضُ مَنْ يُطْلِعُهُ اللهُ عَلَيْهِ، وَلَكِنَّ هَذَا لَيْسَ بِلَازِمٍ.

وَأَمَّا المُنَافِقُ وَالمُرْتَابُ الَّذِي عَاشَ عَلَى الشَّكِّ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّهُ يَمُوتُ عَلَى الشَّكِّ، فَإِذَا سَأَلَاهُ وَقَالَا: «مَنْ رَبُّكَ؟» قَالَ: لَا أَدْرِي، «مَا دِينُكَ؟» قَالَ: لَا

---

(١) أخرجه أبوداود (٤٧٥٣)، وأحمد في المسند (٤/ ٢٨٧)، والطيالسي (١/ ١٠٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٣٥٨) من حديث البراء بن عازب ﷺ، وانظر: كتاب إثبات عذاب القبر للبيهقي.

أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيئًا فقُلْتُهُ، «مَنْ نَبِيُّكَ؟» قَالَ: لا أَدْرِي.

لأَنَّهُ فِي الدُّنْيَا لَمْ يُؤْمِنْ بِقَلْبِهِ، وَإِنَّمَا تَكَلَّمَ بلِسَانِهِ، «سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ» مِنْ بَابِ المجَارَاةِ لَهُمْ، وَهَذَا هُوَ المنَافِقُ الّذِي يَقُولُ مَا يَقُولُهُ المؤْمِنُونَ، وَيُصَلِّي وَيَصُومُ، وَلَكِنْ لَيْسَ فِي قَلْبِهِ إِيمانٌ، إِنَّما يَفْعَلُ هَذَا مِنْ بَابِ المدَارَاةِ وَمِنْ بَابِ التَّقِيَّةِ؛ لِأَجْلِ أَنْ يَعِيشَ مَعَ المسْلِمِينَ فَقَطَ وَهُوَ لَمْ يُؤْمِنْ بِقَلْبِهِ.

وَلَوْ كَانَ فَصِيحًا مُتعَلِّمًا يَحْفَظُ المتُونَ وَالأَسَانِيدَ، فَإِنَّهُ فِي القَبْرِ يَتَلَعْثَمُ وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتكَلَّمَ وَيَغِيبُ عَنْهُ الجَوَابُ، وَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، وَلَكِنْ سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ أَعْرِفَ هَذَا الشَّيْءَ وَأَعْتَقِدَهُ، فيُنَادِي مُنَادٍ: «أَنْ كَذَبَ عَبْدِي، فَافرِشُوهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ»، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا، وَيَضِيقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ أَضْلَاعُهُ ـ وَالعِيَاذُ بِاللَّهِ ـ وَيُصْبِحُ قَبْرُهُ حُفْرَةً مِنْ حُفَرِ النَّارِ، فَيَقُولُ: «يَا رَبِّ لا تُقِمْ السَّاعَةَ»؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُ إِذَا قَامَتِ السَّاعَةُ فَمَا بَعْدَهَا أَشَدُّ مِمَّا هُوَ فِيهِ وَالعِيَاذُ بِاللَّهِ.

وَهَذَا يُشِيرُ إِلَيْهِ قَوْلُهُ ﷻ: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ كَمَا أَنَّهُمْ عَاشُوا عَلَى القَوْلِ الثَّابِتِ فِي الدُّنْيَا، وَالإِيمانِ الصَّادِقِ فَإِنَّ اللهَ يُثَبِّتُهُمْ فِي القَبْرِ وَعِنْدَ السُّؤَالِ، ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ الإِجَابَةَ، وَالأَحَادِيثُ فِي هَذَا مُتَوَاتِرَةٌ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ[1]، وَأَهْلُ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ

---

(١) قال ابن أبي العز: (وقد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ في ثبوت عذاب القبر ونعيمه لمن =

مُـجْمِعُونَ عَلَيْـهِ، وَلَمْ يُنْكِـرْهُ إِلا المعْتَزِلَـةُ الـذِينَ يَعْتَمِـدُونَ عَـلَى عُقُـولِهِمْ، وَالعَقْلَانِيُّونَ الآنَ الذِينَ هُمْ أَفْراخُ المعْتَزِلَةِ وَهُمْ عَلَى هَذَا المذْهَبِ.

وَهَذَا الـذِي يُلَاقِيـهِ فِي القَـبْرِ أَوَّلُ اليَـوْمِ الآخِرِ، فَـإِذَا نَجَـا الإِنْـسَانُ مِـنَ القَبْرِ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ، وَإِنْ لَمْ يَـنْجُ فَـمَا بَعْدَهُ أَشَـدُّ مِنْـهُ، فَـأَوَّلُ بَـوَّابَـةٍ لِلْيَـوْمِ الآخِرِ هُوَ القَبْرُ، وَالدُّورُ ثَلَاثٌ - كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ -:

- دَارُ الدُّنْيَا، وَهِيَ دَارُ عَمَلٍ.
- دَارُ البَرْزَخِ، وَهُوَ القَبْرُ، وَهُوَ دَارُ انْتِظَارٍ.
- وَدَارُ القَـرَارِ، وَهِـيَ الـدَّارُ الآخِـرَةُ، ﴿وَإِنَّ ٱلْـَٔاخِـرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَـرَارِ﴾ [غافر: ٣٩]، فَيَسْتَقِرُّ النَّاسُ فِيهَا إِلَى الأَبَدِ، فِي الجَنَّةِ أَوْ فِي النَّارِ.

فَالآخِرَةُ تَبْدَأُ مِنَ المَوْتِ، وَأَوَّلُ مَا يَكُونُ فِيهَا عَذَابُ القَبْرِ أَوْ نَعِيمُ القَبْرِ، فَالقَبْرُ فَاصِلٌ بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ الآخِـرَةِ، وَهُـوَ مَـحَطَّةُ انْتِظَـارٍ؛ وَلِـذَلِكَ سُـمِّيَ بِالبَرْزَخِ؛ لِأَنَّ البَرْزَخَ هُوَ الفَاصِلُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ.

وَكَذَلِكَ مِنَ الإِيمَانِ بِاليَوْمِ الآخِرِ الإِيمَانُ بِـأَنَّ اللهَ يَبْعَـثُ هَـذِهِ الأَجْسَامَ مِنْ قُبُورِهَا، فَتَقُومُ لِرَبِّ العَالَمِينَ مُتَكَامِلَةَ الخِلْقَةِ، كَمَا كَانُوا فِي الدُّنْيَا مُتَكَـامِلِي الخِلْقَـةِ لَا يَـضِيعُ مِنْهَـا شَيْءٌ، فَـإِذَا نَفَـخَ إِسْرَافِيـلُ فِي الـصُّورِ النَّفْخَـةَ الثَّانِيَـةَ طَارَتْ الأَرْوَاحُ مِنَ الصُّورِ - وَهُوَ القَرْنُ - وَدَخَلَـتْ كُـلُّ رُوحٍ فِـي جِسْمِهَا ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُـرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، ثُـمَّ يُـؤْمَرُونَ بِالمسِيرِ إِلَى المحْـشَرِ، ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ [المعارج: ٤٣] يَعْنِـي بِـسُرْعَةٍ، فَـلَا يَتَخَلَّـفُ

=

كان لذلك أهلاً وسؤال الملكين، فيجب اعتقاد ثبوت ذلك والإيمان به). انظر: شرح العقيدة الطحاوية (ص ٤٥٠).

أَحَدٌ أَوْ يَخْتَفِي أَحَدٌ، كُلُّهُمْ يَسِيرُونَ إِلَى المَحْشَرِ، يَقُومُونَ مِنْ قُبُورِهِم وَيُسَاقُونَ إِلَى المَحْشَرِ، فَيُحْشَرُونَ فِيهِ، وَيَقِفُونَ فِيهِ عَلَى أَقْدَامِهِمْ مِنْ أَوَّلِ الخَلْقِ إِلَى آخِرِهِمْ فِي مَوْقِفٍ وَاحِدٍ، حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً، حُفَاةً: لَيْسَ عَلَيْهِمْ نِعَالٌ، عُرَاة: لَيْسَ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ، غُرْلاً: غَيْرَ مَخْتُونِين[1]، فَيُحْشَرُونَ فِي المَحْشَرِ بِمِقْدَارِ خَمْسِينَ أَلْفِ سَنَةٍ وَهُمْ وُقُوفٌ عَلَى أَقْدَامِهِمْ، يَنْتَظِرُونَ مَاذَا يُفْعَلُ بِهِمْ، أَمَّا المؤْمِنُ فَلَا يُحِسُّ بِهَذِهِ المَشَقَّةِ، وَإِنَّمَا الذِي يُحِسُّ بِمَشَقَّةِ الحَشْرِ هُوَ الكَافِرُ، قَالَ ﷻ: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفُرْقَان: ٢٦]، وَقَالَ ﷻ: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدَّثِّر: ٨-١٠].

ثُمَّ يَنْصَرِفُونَ مِنَ المَحْشَرِ -بَعْدَ هَذِهِ المدَّةِ الطَّوِيلَةِ- إِلَى الحِسَابِ، يُحَاسَبُونَ عَلَى أَعْمَالِهِم، لَا يُتْرَكُ مِنْهَا شَيْءٌ، يُوقَفُونَ عَلَيْهَا وَيُحَاسَبُونَ عَلَيْهَا، وَيُقَرَّرُونَ بِهَا، وَهُنَاكَ مَنْ لَا يُحَاسَبُ فَيَدْخُلُ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، كَمَا فِي حَدِيثِ السَّبْعِينَ أَلْفًا الذِينَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِلَا حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ[2]، وَمِنْهُمْ مَنْ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا وَهُوَ العَرْضُ ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ [الانشِقَاق: ٨، ٩]، وَمِنْهُمْ مَنْ يُنَاقَشُ الحِسَابَ، قَالَ ﷺ: «مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ عُذِّبَ»[3] وَهَذِهِ الأَصْنَافُ الثَّلَاثَةُ فِي حَقِّ المؤْمِنِين،

---

(١) كما جاء في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٣٤٩)، ومسلم (٢٨٦٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قال: «إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا...».

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٤١)، ومسلم (٢٢٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) خرجه البخاري (١٠٣)، ومسلم (٢٨٧٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

فَالمؤْمِنُ يُحَاسَبُ حِسَابَ مُوازَنَةٍ بَيْنَ حَسَنَاتِهِ وَسَيِّئَاتِهِ، أَمَّا الكَافِرُ فَلَا يُحَاسَبُ حِسَابَ مُوازَنَةٍ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ حَسَنَاتٌ، وَلَكِنَّهُ يُحَاسَبُ حِسَابَ تَقْرِيرٍ، يُقَرَّرُ بِأَعْمَالِهِ حَتَّى يَعْتَرِفَ بِهَا.

ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ المَوَازِينُ، فَتُوزَنُ الأَعْمَالُ - الحَسَنَاتُ وَالسَّيِّئَاتُ - بِمِيزَانٍ حَقِيقِيٍّ لَهُ كِفَّتَانِ(١)، تُوضَعُ الحَسَنَاتُ فِي كِفَّةٍ وَالسَّيِّئَاتُ فِي كِفَّةٍ، كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٢، ١٠٣]، ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة: ٦-٩]، يَعْنِي: مَوَازِينَ أَعْمَالِهِ، فَتُوضَعُ حَسَنَاتُهُ فِي كِفَّةٍ وَسَيِّئَاتُهُ فِي كِفَّةٍ، فَأَيُّهُمَا رَجَحَ فَإِنَّهُ يَأْخُذُ جَزَاءَهُ بِمُوجَبِ ذَلِكَ مِنْ رُجْحَانِ الحَسَنَاتِ أَوْ رُجْحَانِ السَّيِّئَاتِ، وَهَذَا مِنْ عَدْلِ اللَّهِ أَنَّهُ لَا يَظْلِمُ أَحَدًا، بَلْ يُجَازِي الإِنْسَانَ بِعَمَلِهِ.

وَهُوَ مِيزَانٌ حَقِيقِيٌّ، وَالمعْتَزِلَةُ يَقُولُونَ: إِنَّهُ مِيزَانٌ غَيْرُ حَقِيقِيٍّ، وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ إِقَامَةُ العَدْلِ، فَهُوَ مِيزَانٌ مَعْنَوِيٌّ مَعْنَاهُ العَدْلُ بَيْنَ العِبَادِ. وَلَيْسَ لَهُمْ

(١) قال ابن أبي العز في شرح الطحاوية (ص٤٧٥): (فثبت وزن الأعمال والعامل وصحائف الأعمال، وثبت أن الميزان له كفتان، والله أعلم بما وراء ذلك من الكيفيات).

وقد ورد ذكر الكفتين في عدد من الأحاديث، منها حديث أبي سعيد الخدري ﷺ الذي رواه ابن حبان في صحيحه (١٤/ ١٠٢)، والحاكم في المستدرك (١/ ٢٢٨) وصححه، وفيه: «يَا مُوسَى، لَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَعَامِرَهُنَّ غَيْرِي، وَالأَرَضِينَ السَّبْعَ فِي كِفَّةٍ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فِي كِفَّةٍ مَالَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ». وروى أحمد (٢/ ١٦٩، ١٧٠) نحوه من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، وقد ورد ذكر الكفة في حديث البطاقة الذي رواه الترمذي (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٤٣٠٠)، والحاكم في المستدرك (١/ ٦) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

دَلِيلٌ إِلَّا عُقُولُهُمْ، فَهُمْ يُنكِرُونَهُ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَرَوْا المِيزَانَ، وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِالغَيْبِ، وَهَذِهِ آفَةُ الاعْتِمَادِ عَلَى العُقُولِ؛ لِأَنَّ المؤْمِنَ لَا يَعْتَمِدُ عَلَى عَقْلِهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَالعَقْلُ دَلِيلٌ وَلَكِنْ لَا يَكُونُ هُوَ كُلَّ شَيْءٍ، هُنَاكَ أَشْيَاءُ لَا يُدْرِكُهَا العَقْلُ، فَالأُمُورُ المغَيَّبَةُ لَا يُدْرِكُهَا العَقْل فَلَا تُحَكِّمْ عَقْلَكَ فِيهَا، وَإِنَّمَا يُعْتَمَدُ فِيهَا عَلَى الدَّلِيلِ فَقَطْ، فَهَذَا وَجْهُ إِنْكَارِهِمْ لَهُ، وَعَلَى مَذْهَبِهِمْ البَاطِلِ أَنَّ الَّذِي لَا يُشَاهِدُونَهُ وَلَا يَرَوْنَهُ أَنَّهُمْ يُنْكِرُونَهُ، أَوْ يُؤَوِّلُونَهُ بِغَيْرِ مَعْنَاه، فَهُمْ لَا يُنكِرُونَ لَفْظَ المِيزَانِ؛ لِأَنَّهُ وَرَدَ فِي القُرْآنِ: ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف: ٨، ٩]، ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾، فَلَا يُنكِرُونَ لَفْظَ الموَازِينِ، وَلَكِنْ يُفَسِّرُونَهَا وَيُحَرِّفُونَهَا عَنْ مَعْنَاهَا؛ كَمَا هُوَ حَالُهُمْ مَعَ سَائِرِ النُّصُوصِ الَّتِي تُخَالِفُ عُقُولَهُمْ يُحَرِّفُونَهَا عَنْ مَعْنَاهَا الصَّحِيحِ، أَمَّا أَهْلُ الحَقِّ فَإِنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِهَا عَلَى حَقِيقَتِهَا، وَيَكِلُونَ كَيْفِيَّتَها إِلَى اللَّهِ ﷻ.

ثُمَّ هُنَاكَ تَطَايُرُ الصُّحُفِ ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴾ إِلَى قَوْلِه ﷻ: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴾ [الحاقة: ١٩-٢٥].

ثُمَّ بَعْدَ هَذِهِ الأَهْوَالِ كُلِّهَا هُنَاكَ الصِّرَاطُ مَنْصُوبًا عَلَى مَتْنِ جَهَنَّمَ، وَالصِّرَاطُ: هُوَ الطَّرِيقُ، وَهُوَ مَا يُسَمَّى بِالقَنْطَرَةِ، عَلَى مَتْنِ جَهَنَّمَ، أَيْ عَلَى وَسَطِ جَهَنَّمَ، يَمُرُّ الخَلَائِقُ كُلُّهُم عَلَى هَذَا الصِّرَاطِ، وَهُوَ أَدَقُّ مِنَ الشَّعْرَةِ،

وَأَحَدُّ مِنَ السَّيفِ، وَأَحَرُّ مِنَ الجَمْرِ، يَمُرُّ النَّاسُ عَلَيهِ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِم تَجْرِي بِهِم أَعْمَالُهُم فَوْقَ الصِّرَاطِ:

- فَمِنْهُم مَنْ يَمُرُّ كَالبَرْقِ الخَاطِفِ.
- وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالرِّيحِ.
- وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالفَرَسِ الجَوَادِ.
- وَمِنْهُم مَنْ يَمُرُّ كَرُكَّابِ الإِبِلِ.
- وَمِنْهُم مَنْ يَعْدُو عَدْوًا.
- وَمِنْهُم مَنْ يَمشِي مَشْيًا.
- وَمِنْهُم مَنْ يَزْحَفُ زَحْفًا.
- وَمِنْهُم مَنْ يُخْطَفُ ويُلْقَى فِي جَهَنَّمَ.

وَهَذَا مَذْكُورٌ فِي القُرآنِ، قَالَ ﷻ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ كُلُّ النَّاسِ يَرِدُونَ جَهَنَّمَ، ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٦٨-٧٢]، فَإِذَا تَجَاوَزُوا الصِّرَاطَ أُوقِفُوا لِلْقِصَاصِ، يُقْتَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ، فَإِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الجَنَّةِ.

الرُّكْنُ السَّادِسُ: الإِيمَانُ بِالقَدَرِ، وَالقَدَرُ هُوَ سِرُّ اللَّهِ ﷻ[1]، وَالقَدَرُ

---

(١) كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما، الذي أخرجه أبونعيم في الحلية (٦/ ١٨١، ١٨٢) قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تكلموا في القدر، فإنه سر الله، فلا تفشوا لله سره». وانظر: تاريخ دمشق =

هُوَ مَا قَدَّرَهُ اللهُ مِمَّا كَانَ وَمَا يَكُونُ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، جَرَى القَلَمُ بِالمَقَادِيرِ، وَكُتِبَ فِي اللَّوْحِ المَحْفُوظِ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ[1]، فَلَا يَقَعُ شَيْءٌ إِلا بِقَدَرٍ ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، فَالأُمُورُ لَيْسَتْ عَبَثًا أَوْ أُنفًا، بَلْ هِيَ مُقَدَّرَةٌ مِنْ قَبْلُ ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [الحديد: ٢٢]، قَوْلُهُ: ﴿كِتَٰبٍ﴾ هُوَ اللَّوْحُ المَحْفُوظُ، وَقَوْلُهُ: ﴿قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ يَعْنِي: نَخْلُقَهَا وَنُوجِدَهَا.

وَالإِيمَانُ بِالقَدَرِ عَلَى أَرْبَعِ مَرَاتِبَ[2]:

المَرْتَبَةُ الأُولَى: الإِيمَانُ بِعِلْمِ اللَّهِ ﷻ الأَزَلِيِّ الأَبَدِيِّ المحِيطِ بِكُلِّ شَيْءٍ، أَيْ: نَعْتَقِدُ أَنَّ اللهَ عَلِمَ كُلَّ شَيْءٍ، عَلِمَ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ.

المَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ: الإِيمَانُ بِأَنَّ اللهَ كَتَبَ فِي اللَّوْحِ المحْفُوظِ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ.

المَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ: مَرْتَبَةُ المَشِيئَةِ وَالإِرَادَةِ، مَا شَاءَهُ اللهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ.

المَرْتَبَةُ الرَّابِعَةُ: مَرْتَبَةُ خَلْقِ الأَشْيَاءِ فِي أَوْقَاتِهَا المقَدَّرَةِ لَهَا، كُلُّ شَيْءٍ فِي وَقْتِهِ، كُلُّ شَيْءٍ فِي حِينِهِ الذِي قَدَّرَهُ اللهُ ﷻ، فَلَا خَالِقَ مَعَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى،

=

(٤٢/ ٥١٣)، وفيض القدير (١/ ٣٤٨)، وتحفة الأحوذي (٦/ ٢٧٩).

(١) كما في الحديث الذي أخرجه أبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (٢١٥٥) من حديث عبادة بن الصامت ﷺ عن النبي ﷺ، وفيه: «أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ».

(٢) انظر: العقيدة الواسطية مع شرحها للمؤلف -حفظه الله تعالى- (ص١٦٢-١٦٩).

قَالَ عَجَلَّ: ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الزُّمَر: ٦٢]، وَقَالَ: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصَّافات: ٩٦]، فَتُؤْمِنُ بِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ فَهُوَ مَخْلُوقٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

هَذِهِ مَرَاتِبُ الإِيمَانِ بِالقَضَاءِ وَالقَدَرِ، قَالَ اللهُ عَجَلَّ: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المجادلة: ٧]، وَقَالَ عَجَلَّ: ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾ وَهُوَ اللَّوْحُ المحْفُوظُ، ﴿ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ﴾ أَيْ نَخْلُقَهَا، فَهِيَ مَكْتُوبَةٌ قَبْلَ أَنْ تُخْلَقَ، ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣]، فَلَا تَحْزَنْ عَلَى مَا فَاتَ وَمَا نَقُصَ مِنْ مَالِكَ أَوْ أَوْلَادِكَ أَوْ مِمَّا تُحِبُّ، وَلَا تَفْرَحْ فَرَحَ الأَشِرِ وَالبَطِرِ والكِبْرِ بِمَا آتَاكَ اللهُ مِنَ المَالِ، أَمَّا الفَرَحُ بِفَضْلِ اللَّهِ، فَهَذَا مَحْمُودٌ، تَشْكُرُ اللهَ وَتَفْرَحُ بِمَا أَعْطَاكَ اللهُ، لَكِنْ فَرَحُ الأَشِرِ والبطِرِ هَذَا هُوَ المَمْنُوعُ، قَالَ عَجَلَّ: ﴿ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ [القصص: ٧٦]، ﴿ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴾ [الرَّعد: ٢٦]، فَالفَرَحُ عَلَى قِسْمَيْنِ:

- فَرَحٌ مَذْمُومٌ، وَهُوَ فَرَحُ الكِبْرِ والبَطِرِ والأَشِرِ.
- وَفَرَحٌ مَحْمُودٌ، وَهُوَ الفَرَحُ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨].

وَإِذَا آمَنَ الإِنْسَانُ بِالقَضَاءِ وَالقَدَرِ اسْتَرَاحَ، فَلَا يَحْزَنُ عَلَى مَا فَاتَ وَلَا يَفْرَحُ بِمَا أُعْطِيَ فَرَحًا يُخْرِجُهُ عَنِ الاعْتِدَالِ، أَمَّا الَّذِي لَا يُؤْمِنُ بِالقَضَاءِ وَالقَدَرِ فَإِنَّهُ يَجْزَعُ وَيَسْخَطُ إِذَا فَاتَهُ شَيْءٌ، وَيَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ قَبِيحٍ، أَو يَفْعَلُ فِعْلًا قَبِيحًا؛ كَلَطْمِ الخُدُودِ، وَشَقِّ الجُيُوبِ، وَدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ عِنْدَ المَصَائِبِ؛ لأَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ بِالقَضَاءِ وَالقَدَرِ، وَلَيْسَ بِرَادٍّ مَا فَاتَهُ وَلَوْ جَزِعَ، وَلَوْ سَخِطَ، وَلَوْ لَطَمَ خَدَّهُ، وَشَقَّ جَيْبَهُ، فَلَنْ يُعِيدَ مَا فَاتَهُ، لَكِنْ تَحْصُلُ عَلَيْهِ المُصِيبَةُ، وَيَفُوتُهُ الأَجْرُ أَيْضًا، أَمَّا الَّذِي يُؤْمِنُ بِالقَضَاءِ وَالقَدَرِ، وَيَصْبِرُ عَلَى مَا أَصَابَهُ، وَيَعْلَمُ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَأَنَّ مَا شَاءَ اللهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، فَإِنَّهُ يَسْتَرِيحُ.

وَكَذَلِكَ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِالقَضَاءِ وَالقَدَرِ يُصَبُ بِالجُبْنِ وَالخَوْفِ، فَلَا يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَا يَطْلُبِ الرِّزْقَ؛ لأَنَّهُ يَخَافُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، فَيَنْحَبِسُ عَنِ الأَعْمَالِ مِنَ الخَوْفِ، أَمَّا إِذَا آمَنَ بِالقَضَاءِ وَالقَدَرِ فَإِنَّهُ يَمْضِي فِي الجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَيَمْضِي فِي طَلَبِ الرِّزْقِ، وَيَكِلُ الأُمُورَ إِلَى اللَّهِ ﷻ، وَقَدْ جَاءَ فِي الحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ لابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «**إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، واعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ**»[1].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد في المسند (١/ ٣٠٧)، وأبويعلى في مسنده (٤/ ٤٣٠)، وعبد بن حميد في مسنده (ص٢١٤)، والطبراني في الكبير (١١٢٤٣)، وابن المستفاض في القدر (ص١٣٠)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٦٢٤)، وأبونعيم في الحلية (١/ ٣١٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٢٧).

فَالإِيمَانُ بِالقَضَاءِ وَالقَدَرِ يُكْسِبُ الإِنْسَانَ قُوَّةَ العَزِيمَةِ، وَقُوَّةَ الإِيمَانِ، وَالتَّوكُّلَ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَعَدَمُ الإِيمَانِ بِالقَضَاءِ وَالقَدَرِ يُؤَدِّي بِالإِنْسَانِ إِلَى الجَزَعِ وَالسَّخَطِ عِنْدَ المَصَائِبِ، وَأَيْضًا يُعَرْقِلُهُ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الأَعْمَالِ، فَيُصَابُ بِالتَّرَدُّدِ وَالأَوْهَامِ وَالوَسَاوِسِ، فَلَا يُقْدِمُ عَلَى شَيْءٍ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَكُونَ كَذَا أَوْ يَكُونَ كَذَا، وَيَتْرُكُ الأُمُورَ النَّافِعَةَ خَوْفًا مِنْ أَنْ يُصِيبَهُ كَذَا وَكَذَا؛ لأَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ بِالقَضَاءِ وَالقَدَرِ، فَمَا قَضَاهُ اللهُ وَقَدَّرَهُ لَابُدَّ أَنْ يَحْصُلَ سَوَاءً خَرَجْتَ أَوْ لَمْ تَخْرُجْ، سَوَاءً فَعَلْتَ أَوْ لَمْ تَفْعَلْ، فَتَعْتَصِمُ بِاللَّهِ، وَتَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ، وَتَتْرُكُ القَضَاءَ وَالقَدَرَ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَإِذَا أَصَابَكَ شَيْءٌ لَا تَجْزَعْ؛ وَلِهَذَا قَالَ ﷺ: «**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، واسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ لَكَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ**» وَفِي رِوَايَةٍ: «**قَدَّرَ اللهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ**»[1]، فَإِذَا بَذَلْتَ السَّبَبَ وَلَمْ يَحْصُلِ المَقْصُودُ فَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَمْ يُرِدْهُ، وَأَنْتَ لَا تَدْرِي رُبَّمَا أَنَّ الخِيَرَةَ فِي عَدَمِ حُصُولِهِ، وَاللهُ ﷻ حَكِيمٌ، فَأَنْتَ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَبِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ وَتَصْبِرُ عَلَى المَصَائِبِ.

كَذَلِكَ لَا يُصِيبُكَ الأَشَرُ والبَطَرُ عِنْدَ النِّعَمِ، وَتَتَّزِنُ فِي أُمُورِكَ، وَتَرْتَاحُ فِي ضَمِيرِكَ، وَتَعِيشُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا عِيشَةَ المؤْمِنِ المتوَكِّلِ عَلَى اللَّهِ المفَوِّضِ أَمْرَهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَتَعْمَلُ وَتُنْتِجُ، وَتُجَاهِدُ؛ لِأَنَّكَ تُؤْمِنُ بِالقَضَاءِ وَالقَدَرِ، وَتُؤْمِنُ أَنَّهُ لَا يَحْصُلُ شَيْءٌ إِلا بِسَبَبٍ، وَلَا تُعَطِّلُ الأَسْبَابَ، وَلَكِنْ لَا تَعْتَمِدْ عَلَى الأَسْبَابِ، اجْمَعْ بَيْنَ الأَمْرَيْنِ: الإِيمَانِ بِالقَضَاءِ وَالقَدَرِ، وَفِعْلِ

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

الأَسْبَابِ مَعَ التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّـهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فَهَـذِهِ صِفَةُ المؤْمِنِ، وَهَـذَا هُـوَ الإِيـمَانُ بِالقَـضَاءِ وَالقَـدَرِ، فَإِنَّ الإِيـمَانَ بِالقَـضَاءِ وَالقَـدَرِ يُفِيـدُ الإِنْـسَانَ فِي هَـذِهِ الحَيَـاةِ، وَيُـذْهِبُ عَنْـهُ الخَـوْفَ وَالوَسَاوِسَ وَالهُمُومَ، وَعَدَمُ الإِيمَانِ بِالقَضَاءِ وَالقَدَرِ يُصِيبُ الإِنْسَانَ بِالخَوَرِ وَالضَّعْفِ وَالوَسَاوِسِ وَالأَوْهَامِ، وَكُلُّ شَيْءٍ يُخِيفُهُ، فَهَذَا نَتِيجَةُ عَدَمِ الإِيـمَانِ بِالقَضَاءِ وَالقَدَرِ.

وَيَجِبُ عَلَى العَبْدِ المؤْمِنِ مَعَ إِيمَانِهِ بِالقَضَاءِ وَالقَـدَرِ أَنْ يُـؤْمِنَ بِـأَنَّ العِبَادَ لَهُمْ أَفْعَالٌ يَفْعَلُونَهَا بِاخْتِيَارِهِمْ، لَيْسُوا مُـجْبَرِينَ عَلَيْهَا، فَهُـوَ يُـؤْمِنُ أَوْ يَكْفُـرُ، أَوْ يُـصَلِّي أَوْ يَـتْرُكُ، أَوْ يَـصُومُ أَوْ يُفْطِرُ، هُـوَ الـذِي يَفْعَـلُ هَـذَا، فَيُثَـابُ عَـلَى الطَّاعَاتِ ويُعَاقَبُ عَلَى المَعَاصِي؛ لأَنَّهَـا أَفْعَالُـهُ، فَهُـو لَا يُعَاقَـبُ عَـلَى القَـضَاءِ وَالقَدَرِ إِنَّمَا يُعَاقَبُ عَلَى أَفْعَالِهِ هُوَ التِي يَفْعَلُهَـا بِاخْتِيَـارِهِ وَإِرَادَتِـهِ، فَهُـوَ يَقْـدِرُ عَلَى أَنْ يَقُـومَ لِيُـصَلِّيَ الفَجْـرَ وَيَقْـدِرُ أَنْ يَنَـامَ وَيَـتْرُكَ صَـلَاةَ الفَجْـرِ، يَقْـدِرُ أَنْ يَصُومَ رَمَضَانَ، وَيَقْدِرُ أَنْ يَـتْرُكَ صِـيَامَ رَمَـضَانَ، وَيَقْـدِرُ أَنْ يَمْنَـعَ نَفْسَهُ مِـنَ الفَوَاحِشَ، وَيَقْدِرُ أَنْ يَـتْرُكَ نَفْـسَهُ مَـعَ الفَـوَاحِشِ، كُـلُّ شَيْءٍ هُـوَ يَقْـدِرُ عَلَيْـهِ بِمَشِيئَتِهِ وَإِرَادَتِهِ، وَاللهُ أَعْطَاهُ الإِرَادَةَ، وَأَعْطَاهُ المـشِيئَةَ، وَأَعْطَـاهُ الاخْتِيَـارَ أَنْ يَفْعَلَ أَوْ لَا يَفْعَـلَ؛ وَلِـذَلِكَ المُكْـرَهُ لَـيْسَ عَلَيْـهِ شَيْءٌ؛ لِأَنَّـهُ لَـيْسَ لَـهُ اخْتِيَـارٌ، وَكَذَلِكَ المجْنُونُ لَيْسَ عَلَيْهِ شَيْءٌ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ اخْتِيَارٌ؛ كَذَلِكَ الـصَّبِيُّ الـذِي لَمْ يَبْلُغْ لَيْسَ عَلَيْهِ شَيْءٌ؛ لَأَنَّـهُ لَيْسَ لَهُ اخْتِيَارٌ حَتَّى يَبْلُغَ.

فَلَابُدَّ مِنَ الإِيمَانِ بِهَذَا أَنهُ مَعَ الإِيمانِ بِالقَضَاءِ وَالقَـدَرِ نُـؤْمِنُ بِـأَنَّ العِبَادَ

لَهُمْ أَفْعَالٌ وَلَهُمْ إِرَادَةٌ وَلَهُمْ مَشِيئَةٌ، لَا كَمَا تَقُولُهُ الجَبْرِيَّةُ[1]: إِنَّ العِبَادَ مُجْبَرُونَ وَمُحَرَّكُونَ فَقَطَ لَيسَ لَهُمْ اخْتِيَارٌ، وَلَا كَمَا تَقُولُهُ المعْتَزِلَةُ: إِنَّ اللهَ لَيْسَ لَهُ قَضَاءٌ وَقَدَرٌ، وَإِنَّمَا العِبَادُ يَسْتَقِلُّونَ بِأَفْعَالِهِم، وَهُمُ الذِينَ يَخْلُقُونَ أَفْعَالَهُم بِقُدْرَتِهِمْ لَيْسَ بِإِرَادَةِ اللَّهِ، وَلَا بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ. فَالمُعْتَزِلَةُ وَالجَبْرِيَّةُ عَلَى طَرَفَيْ نَقِيضٍ، أَمَّا أَهْلُ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ فَهُمْ مُعْتَدِلُونَ فِي هَذَا، يَقُولُونَ: اللهُ ﷻ قَدَّرَ الأَشْيَاءَ، وَلَكِنَّهُ أَعْطَى العِبَادَ الاخْتِيَارَ وَالمَشِيئَةَ وَالإِرَادَةَ وَالقُدْرَةَ عَلَى الفِعْلِ أَوْ التَّرْكِ. قَالَ ﷻ: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٤-١٠]، وَهَذَا فِيهِ رَدٌّ عَلَى الجَبْرِيَةِ الذِينَ يَنْفُونَ أَفْعَالَ العِبَادِ واخْتِيَارَهِمْ، وَمَا عَلَيْهِ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ هُوَ مُقْتَضَى القُرْآنِ والسُّنَّةِ، وَهُوَ الاعْتِدَالُ بَيْنَ الجَبْرِيةِ وَالقَدَرِيةِ.

فَلَابُدَّ مِنَ الإِيمَانِ بِالقَدَرِ بِجَمِيعِ هَذِهِ المَرَاتِبِ، فَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ لَا قَدَرَ، وَأَنَّ العِبَادَ هُمْ الذِينَ يَخْلُقُونَ أَفْعَالَهُمْ دُونَ قَدَرِ اللَّهِ كَالمعْتَزِلَةِ، فَهَذَا إِنْ كَانَ مُتَبنيًا لِهَذَا الرَّأْيَ وَهُوَ يَعْلَمُ الأَدِلَّةَ، وَلَكِنَّهُ يُنْكِرُهَا وَيَأْخُذُ بِرَأْيِهِ، فَهَذَا كَافِرٌ بِلَا شَكٍّ، أَمَّا إِنْ كَانَ مُقَلِّدًا أَوْ جَاهِلاً فَهَذَا يُبَيَّنُ لَهُ، فَإِنْ أَصَرَّ عَلَى الكُفْرِ بِالقَدَرِ فَإِنَّهُ يُحْكَمُ بِكُفْرِهِ، لَكِنْ إِنْ كَانَ جَاهِلاً أَوْ كَانَ مُقَلِّدًا فَهَذَا لا يُكَفَّرُ

---

(١) الجبر هو نفي الفعل حقيقة عن العبد وإضافته إلى الرب تعالى، والجبرية أصناف: فالجبرية الخالصة هي التي لا تثبت للعبد فعلاً ولا قدرة على الفعل أصلاً، والجبرية المتوسطة هي التي تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة أصلاً. انظر: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (ص٦٨)، والملل والنحل (١/ ٨٥)، والتعريفات (ص١٠١).

مِنْ أَوَّلِ الأَمْرِ، وَإِنَّمَا يُبيَّنُ لَهُ ويُشْرَحُ لَهُ الأَمْرُ، فَإِنْ رَجَعَ فَالحَمْدُ للَّهِ، وَإِنْ أَصَرَّ فَإِنَّهُ يَكُونُ كَافِرًا.

وَلَا يَكْفِي أَنْ تُؤْمِنَ بِالقَضَاءِ وَالقَدَرِ، بَلْ لَابُدَّ أَنْ تَعْمَلَ وَلَا تَتَّكِلَ عَلَى القَضَاءِ وَالقَدَرِ، وَتَقُولَ: إِنْ قَدَّرَ اللهُ لِي فَسَيَحْصُلُ وَإِنْ لَمْ يُقَدِّرْهُ فَإِنَّهُ لَا يَحْصُلُ وَلَا حَاجَةَ إِلَى العَمَلِ، كَمَا يَقُولُهُ الجَبْرِيَّةُ، فَهَذَا بَاطِلٌ؛ لَأَنَّ اللهَ أَمَرَ بِاتِّخَاذِ الأَسْبَابِ، وَأَمَرَ بِالعَمَلِ، وَأَمَرَ بِالسَّعْيِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَلَا يَتَّكِلُ الإِنْسَانُ عَلَى القَضَاءِ وَالقَدَرِ، وَإِنَّمَا يَعْمَلُ وَيَتَحَرَّكُ وَيَطْلُبُ الخَيْرَ وَيَتْرُكُ الشَّرَّ، وَهُوَ لَا يُجَازَى عَنِ القَضَاءِ وَالقَدَرِ، وَإِنَّمَا يُجَازَى عَلَى عَمَلِهِ، وَعَلَى كَدِّهِ وَكَسْبِهِ، وَعَلَى إِرَادَتِهِ وَنِيَّتِهِ وَقَصْدِهِ، فَهُوَ يُحَاسَبُ عَلَى أَعْمَالِهِ، وَيُجَازَى عَلَى أَعْمَالِهِ، فَإِنْ كَانَتْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ كَانَتْ شَرًّا فَشَرٌّ.

هَذِهِ هِيَ أَرْكَانُ الإِيمَانِ، وَأَرْكَانُ الإِسْلَامِ، وَالإِسْلَامُ وَالإِيمَانُ مَرْتَبَتَانِ عَظِيمَتَانِ مِنْ مَرَاتِبِ الدِّينِ، فَإِذَا اجْتَمَعَا - بِأَنْ ذُكِرَ الإِسْلَامُ وَالإِيمَانُ - فُسِّرَ الإِسْلَامُ بِالأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ، وَفُسِّرَ الإِيمَانُ بِأَعْمَالِ القَلْبِ، كَمَا فِي هَذَا الحَدِيثِ حَدِيثِ عُمَرَ ﷺ، وَكَمَا فِي قَوْلِ اللهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وَأَمَّا إِذَا ذُكِرَ أَحَدُهُمَا وَحْدَهُ دَخَلَ فِيهِ الآخَرُ، فَإِذَا ذُكِرَ الإِسْلَامُ وَحْدَهُ دَخَلَ فِيهِ الإِيمَانُ؛ لِأَنهُ لَا يَكُونُ إِسْلَامًا صَحِيحًا إِلا بِالإِيمَانِ، وَإِذَا ذُكِرَ الإِيمَانُ وَحْدَهُ دَخَلَ فِيهِ الإِسْلَامُ؛ لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ إِيمَانًا صَحِيحًا إِلَّا بِالإِسْلَامِ، فَلَابُدَّ مِن اجْتِمَاعِ الأَمْرَينِ، وَلَا يَنْفَعُ أَحَدُهُمَا دُونَ الآخَرِ، فَلَا إِسْلَامَ بِدُونِ إِيمَانٍ، وَلَا إِيمَانَ بِدُونِ إِسْلام، يَعْنِي: لَا تَكْفِي الأَعْمَالُ الظَّاهِرَةُ عَنْ أَعْمَالِ القَلْبِ، وَلَا تَكْفِي أَعْمَالُ القَلْبِ عَنْ الأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ.

وَمِنْ ثَمَّ قَالَ العُلَمَاءُ: إِنَّ الإِسْلَامَ وَالإِيمَانَ إِذَا ذُكِرَا جَمِيعًا افْتَرَقَا فِي المَعْنَى، فَيُفَسَّرُ الإِسْلَامُ بِكَذَا، وَيُفَسَّرُ الإِيمَانُ بِكَذَا، وَإِذَا ذُكِرَ أَحَدُهُمَا فَقَطْ دَخَلَ فِيهِ الآخَرُ(١).

وَيَأْتِي حِينَئِذٍ حُكْمُ مُرْتَكِبِ الكَبِيرَةِ مِنْ كَبَائِرِ الذُّنُوبِ التِي هِيَ دُونَ الشِّرْكِ، هَلْ يُقَالُ لَهُ: مُسْلِمٌ أَوْ يُقَالُ لَهُ: مُؤْمِنٌ، أَوْ لَا يُقَالُ: مُسْلِمٌ وَلَا مُؤْمِنٌ؟(٢) أَهْلُ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ وَالمَذْهَبِ الحَقِّ أَنَّ مُرْتَكِبَ الكَبِيرَةِ التِي دُونَ الشِّرْكِ يُقَالُ لَهُ: مُؤْمِنٌ، لَكِنَّهُ نَاقِصُ الإِيمَانِ، فَالإِيمَانُ يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ وَيَنْقُصُ بِالمَعْصِيَةِ، كَمَا دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ الأَدِلَّةُ، قَالَ ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢]، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الإِيمَانَ يَزِيدُ، وَلَيْسَ هُوَ شَيْئًا وَاحِدًا، قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر: ٣١]، وَقَالَ ﷻ: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]، فَالإِيمَانُ يَزِيدُ بِالطَّاعَاتِ، وَيَنْقُصُ بِالمَعَاصِي حَتَّى يَصِلَ إِلَى مِثْقَالِ ذَرَّةٍ، كَمَا فِي حَدِيثِ الأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ، قَالَ ﷺ: «فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ»(٣)، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الإِيمَانَ يَكُونُ ضَعِيفًا، وَيَكُونُ قَوِيًّا، وَفِي الحَدِيثِ أَيْضًا: «الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً فَأَفْضَلُهَا

---

(١) انظر: كتاب الإيمان الكبير لشيخ الإسلام ابن تيمية ضمن مجموع الفتاوى (٧/ ٢٥٩)، وفتح الباري (١/ ١١٥)، وعمدة القاري (١/ ١٩٦).

(٢) انظر: العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ مع شرحها للمؤلف -حفظه الله- (ص١٣٤).

(٣) أخرجه مسلم (٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ وَالحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ»[١]. فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الإِيمَانَ فِيهِ أَعْلَى، وَفِيهِ أَدْنَى.

بِخِلَافِ المُرْجِئَةِ فَإِنَّهُم يَقُولُونَ: الإِيمَانُ لَا يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ، وَهُوَ شَيْءٌ وَاحِدٌ لَا تَدْخُلُ فِيهِ الأَعْمَالُ، وَإِنَّمَا هُوَ فِي القَلْبِ فَقَطْ، فَهَذَا قَوْلٌ بَاطِلٌ بِلَا شَكٍّ؛ لِأَنَّهُ بِخِلَافِ الأَدِلَّةِ.

وَعَلَى العَكْسِ الخَوَارِجُ[٢]، فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ: مُرْتَكِبُ الكَبِيرَةِ الَّتِي دُونَ الشِّرْكِ كَافِرٌ لَيْسَ عِنْدَهُ إِيمَانٌ. فَيَسْلِبُونَهُ الإِيمَانَ بِالكُلِّيَةِ، وَيَجْعَلُونَهُ كَافِرًا وَمُخَلَّدًا فِي النَّارِ وَالعِيَاذُ بِاللَّهِ، فَهَؤُلَاءِ يَسْلِبُونَهُ الإِيمَانَ نِهَائِيًّا، والمُرْجِئَةُ يُعْطُونَهُ الإِيمَانَ كَامِلاً، هَذَا تَنَاقُضٌ بَيْنَهُمْ، أَمَّا أَهْلُ الحَقِّ وَأَهْلُ المَذْهَبِ الصَّحِيحِ فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ الإِيمَانَ يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ وَيَنْقُصُ بِالمَعْصِيَةِ، وَلَيْسَ إِيمَانُ النَّاسِ عَلَى حَدٍّ سَوَاءٍ، فَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ مُؤْمِنٌ كَامِلُ الإِيمَانِ، وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ مُؤْمِنٌ نَاقِصُ الإِيمَانِ.

والمُعْتَزِلَةُ جَاءُوا بِطَرِيقَةٍ جَدِيدَةٍ، فَقَالُوا: لَا نَقُولُ إِنَّ مُرْتَكِبَ الكَبِيرَةِ مُؤْمِنٌ، وَلَا نَقُولُ: إِنَّهُ كَافِرٌ، بَلْ هُوَ فِي مَنْزِلَةٍ بَيْنَ المنْزِلَتَينِ. فَمِنْ أُصُولِ مَذْهَبِهِم: المنزِلَةُ بَيْنَ المنْزِلَتَيْنِ، أَمَّا إِذَا مَاتَ، وَلَمْ يَتُبْ فَهُمْ مِثْلُ الخَوَارِجِ

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٢).

(٢) هم الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي ﷺ حين جرى أمر المحكمين، واجتمعوا بحروراء من ناحية الكوفة، وفيهم قال النبي ﷺ: «يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ، يَقْرَءُونَ القُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ». أخرجه البخاري (٢٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ. انظر: مقالات الإسلاميين (ص٨٦، ٤)، والفرق بين الفرق (ص٥٤)، والملل والنحل (١/ ١١٤).

يَقُولُونَ: مُخَلَّدٌ فِي النَّارِ. فَيَجْتَمِعُونَ مَعَ الخَوَارِجِ فِي عُقُوبَتِهِ فِي الآخِرَةِ وَأَنَّهُ مُخَلَّدٌ فِي النَّارِ، وَأَمَّا فِي الدُّنْيَا فَأَحدَثُوا لَهُمْ مَذْهَبًا لَيْسَ هُوَ مَذْهَبَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ، وَلَيْسَ هُوَ مَذْهَبَ الخَوَارِجِ، وَلَيْسَ هُوَ مَذْهَبَ المرجِئَةِ أَيْضًا، فَيَقُولُونَ: هُوَ لَيْسَ بِمُؤْمِنٍ وَلَا كَافِرٍ. هَلْ هُنَاكَ مَنْ لَيْسَ بِمُؤْمِنٍ وَلَا كَافِرٍ؟ يَمْكُنُ هَذَا فِي المَجْنُونِ والصَّغِيرِ، أَمَّا البَالِغُ العَاقِلُ فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مُؤْمِنًا، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ كَافِرًا، قَالَ ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، وَلَمْ يَقُلْ: وَمِنْكُمْ مَنْ هُوَ لَيْسَ بِكَافِرٍ وَلَا بِمُؤْمِنٍ، فَهَذَا قَوْلٌ مُبْتَدَعٌ وَلَا أَصْلَ لَهُ، وَلَكِنْ هَذَا هُوَ الضَّلَالُ، فَمَنْ تَرَكَ الحَقَّ فَإِنَّهُ يُبتَلَى بِالمتَنَاقِضَاتِ، وَيُبتَلَى بِالبَاطِلِ، وَيَهِيمُ عَلَى وَجْهِهِ مِنْ غَيْرِ دَلِيلٍ.

فَهَذِهِ أُمُورٌ لَابُدَّ مِنْ مَعْرِفَتِهَا؛ لأَنَّهَا مَحَطُّ الجِدَالِ وَالكَلَامِ بَيْنَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَبَيْنَ مُخَالِفِيهِمْ مِنْ أَهْلِ البِدَعِ: الخَوَارِجِ وَالمُرْجِئَةِ وَالمُعْتَزِلَةِ، وَغَيْرِهِم.

ثُمَّ إِنَّ جِبْرِيلَ عليه السلام قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: «أَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ»، والإِحْسَانُ هُوَ المرتَبَةُ العُلْيَا، وَمَعْنَى الإِحْسَانِ: إِتْقَانُ الشَّيْءِ وَإِتْمَامُهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧]، وَإِحْسَانُ العَمَلِ إِتْمَامُهُ وَإِتْقَانُه، وَإِحْسَانُ الصَّنْعَةِ إِتْمَامُهَا وَإِتْقَانُهَا؛ وَلِهَذَا يَقُولُونَ: أَنْتَ تُحْسِنُ كَذَا أَوْ لَا تُحْسِنُ؟ يَعْنِي هَلْ تَعْرِفُ هَذَا الشَّيْءَ تَمَامًا أَوْ أَنَّكَ لَا تَعْرِفُهُ.

وَالإِحْسَانُ يَكُونُ بَيْنَ العَبْدِ وَبَيْنَ رَبِّهِ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَيَكُونُ الإِحْسَانُ بَيْنَ النَّاسِ بِالصَّدَقَةِ وَالمَعْرُوفِ وَبَذْلِ الخَيْرِ، وَالدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ، وَتَعْلِيمِ العِلْمِ النَّافِعِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وَإِحْسَانُ العَمَلِ: إِتْقَانُهُ بِأَنْ يَكُونَ عَلَى السُّنَّةِ، وَلَيْسَ فِيهِ بِدْعَةٌ، فَإِذَا

كَانَ فِي العَمَلِ بِدْعَةٌ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ إِحْسَانِ العَمَلِ، قَالَ ﷻ: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [البقرة: ١١٢]، وَقَالَ ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»(١)، وَقَالَ: «وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ»(٢)، فَإِحْسَانُ العَمَلِ إِخْلَاصُهُ لِلَّهِ ﷻ وَمُوافَقَتُهُ لِلسُّنَّةِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾، فَقَوْلُهُ ﷻ: ﴿ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ ﴾ بِالتَّوْحِيدِ وَالإِخْلَاصِ، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أَيْ: مُتَّبِعٌ لِلرَّسُولِ ﷺ، وَلَمْ يَتَقَرَّبْ إِلَى اللَّهِ بِالبِدَعِ وَالمحْدَثَاتِ.

وَفِي هَذَا الحَدِيثِ: الإِحْسَانُ «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ»، هَذَا هُوَ الإِحْسَانُ بَيْنَ العَبْدِ وَبَيْنَ رَبِّهِ، أَنْ تَعْبُدَ اللهَ مُوقِنًا بِهِ مُؤْمِنًا بِهِ تَمَامَ الإِيمَانِ حَتَّى كَأَنَّكَ تَرَاهُ بِبَصَرِكَ، مِنْ شِدَّةِ الإِيمَانِ؛ لأَنَّ الشَّيْءَ الذِي يُرَى لَا يُشَكُّ فِيهِ، فَعِنْدَمَا تَرَى الجِدَارَ لَا تَشُكُّ فِيهِ، أَوْ تَرَى البَابَ لَا تَشُكُّ فِيهِ أَبَدًا، فَالإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ ﷻ كَأَنَّكَ تُشَاهِدُهُ بِعَيْنِكَ مِنْ قُوَّةِ إِيمَانِكَ وَيَقِينِكَ، وَإِلَّا فَإِنَّ اللهَ لَا يُرى فِي هَذِهِ الدُّنْيَا؛ لِأَنَّ الخَلْقَ لَا يَسْتَطِيعُونَ رُؤْيَةَ اللَّهِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، وَإِنَّمَا يَرَاهُ المؤْمِنُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ فِي الجَنَّةِ إِذَا أَعْطَاهُم اللهُ قُوَّةً يَسْتَطِيعُونَ بِهَا أَنْ يَرَوْا رَبَّهُمْ، أَمَّا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا فَلَا أَحَدَ يَرَى اللهَ مُعَايَنَةً، إِنَّمَا يَرَاهُ بِقَلْبِهِ وَإِيمَانِهِ وَيَقِينِهِ كَأَنَّهُ يُشَاهِدُهُ.

لِهَذَا لَمَّا سَأَلَ مُوسَى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ ﴾، قَالَ اللهُ لَهُ:

---

(١) سبق تخريجه (ص١٥).

(٢) سبق تخريجه (ص١٤).

﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]، يعني: فِي الدُّنْيَا؛ لِأَنَّ مُوسَى ﷺ لا يَسْتَطِيعُ رُؤْيَةَ اللَّهِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، وَلَا أَحَدَ يَسْتَطِيعُ رُؤْيَةَ اللَّهِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لِعَظَمَتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لِأَنَّهُ احْتَجَبَ عَنْ عِبَادِهِ بِالنُّورِ، كَمَا فِي الحَدِيثِ: «حِجَابُهُ النُّورُ»(١)، فَلَا أَحَدَ يَرَى اللهَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، وَإِنَّمَا دَلَّتِ الأَدِلَّةُ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَلَى أَنَّ المُؤْمِنِينَ يُكْرِمُهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ؛ فَكَمَا أَنَّهُمْ عَبَدُوهُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ لَهُ، وَإِنَّمَا آمَنُوا بِهِ، فَإِنَّ اللهَ يُقِرُّ عُيُونَهُمْ بِأَنْ يَتَجَلَّى لَهُمْ وَيَرَوْنَهُ عِيَانًا بِأَبْصَارِهِمْ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى(٢)، أَمَّا الكُفَّارُ لَمَّا لَمْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا فَإِنَّ اللهَ يَحْجُبُهُمْ عَنْ رُؤْيَتِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ، قَالَ ﷻ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، فَإِذَا كَانَ الكُفَّارُ يُحْجَبُونَ عَنِ اللَّهِ فِي الآخِرَةِ، فَإِنَّ المُؤْمِنِينَ يَرَوْنَ رَبَّهُمْ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ كَمَا تَوَاتَرَتْ بِهَذَا الأَدِلَّةُ، فَقَوْلُهُ: «كَأَنَّكَ تَرَاهُ» هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَا يُرَى فِي الدُّنْيَا مُعَايَنَةً، وَإِنَّمَا يُرَى فِي القَلْبِ وَاليَقِينِ وَالإِيمَانِ الَّذِي لَا يُخَالِطُهُ شَكٌّ، وَهَذِهِ أَعْلَى المَرَاتِبِ.

وَبَعْدَهَا مَرْتَبَةٌ قَالَ فِيهَا ﷺ: «فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ» يَعْنِي: لَمْ تَصِلْ إِلَى هَذِهِ الدَّرَجَةِ مِنَ اليَقِينِ «فَإِنَّهُ يَرَاكَ» أَيْ: تُؤْمِنُ بِاطِّلَاعِ اللَّهِ عَلَيْكَ، وَهَذِهِ أَقَلُّ مِنَ

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٩) من حديث أبي موسى ﷺ.

(٢) تواترت الأحاديث الصحيحة التي تثبت رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة، منها ما أخرجه البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣) من حديث جرير بن عبدالله البجلي ﷺ قال: «كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ نَظَرَ إِلَى القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ، فَقَالَ: أَمَا إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا، لَا تُضَامُّونَ - أَوْ لَا تُضَاهُونَ - فِي رُؤْيَتِهِ فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا، فَافْعَلُوا»، ومنها حديث أبي هريرة ﷺ الذي أخرجه البخاري (٧٤٣٧)، ومسلم (١٨٢)، وحديث أبي سعيد الخدري ﷺ الذي أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣).

الأُوْلَى، لَكِنَّهَا دَرَجَةٌ عَالِيَةٌ، فَتعبُدُهُ مُؤْمِنًا بِأَنَّهُ يَطَّلِعُ عَلَيْكَ، وَيَرَاكَ فِي جَمِيعِ تَصَرُّفَاتِكَ، «فَإِنَّهُ يَرَاكَ» يَعْنِي: اعْتَقِدْ بِقَلْبِكَ وَاسْتَحْضِرْ أَنَّ اللهَ يَرَاكَ وَيَطَّلِعُ عَلَيْكَ، وَهَذِهِ مَرْتَبَةٌ عَظِيمَةٌ وَلَا شَكَّ، وَهِي تُسَمَّى: مَرْتَبَةُ المرَاقَبَةِ - مُرَاقَبَةِ اللَّهِ ﷻ وَلَكِنَّهَا أَقَلُّ مِنَ الأُولَى، فَالإِحْسَانُ بَيْنَ العَبْدِ وَبَيْنَ رَبِّهِ هُوَ مَا بَيَّنَه الرَّسُولُ ﷺ فِي هَذَا الحَدِيثِ؛ أَنَّ المؤْمِنَ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى اليَقِينِ وَالإِيمَانِ، إِمَّا اليَقِينُ الذِي يَجْعَلُ العَبْدَ كَأَنَّهُ يَرَى اللهَ، أَوِ اليَقِينُ الذِي يَسْتَحْضِرُ بِهِ العَبْدُ أَنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ عَلَيْهِ وَمُشَاهِدٌ لِأَعْمَالِهِ، فَلَا يَنْحَرِفُ عَنْ طَاعَتِهِ، وَإِذَا انْحَرَفَ أَوْ أَخْطَأَ فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ وَلَا يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَالإِنْسَانُ لَيْسَ مَعْصُومًا، وَلَكِنْ إِذَا حَصَلَ مِنْهُ مُخَالَفَةٌ فَإِنَّهُ يُبَادِرُ بِالتَّوْبَةِ إِلَى اللَّهِ، وَيَعْلَمُ أَنَّ اللهَ يَتُوبُ عَلَى مَنْ تَابَ، وَلَا يَأْخُذُهُ القُنُوطُ وَاليَأْسُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَلَا يَتَلَاعَبُ بِهِ الشَّيْطَانُ حَتَّى يَيْأَسَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، هَذَا هُوَ الإِحْسَانُ.

فَدَلَّ هَذَا الحَدِيثُ عَلَى أَنَّ الدِّينَ يَتَفَاضَلُ وَأَنَّ بَعْضَهُ أَعْظَمُ مِنْ بَعْضٍ، فَأَوَّلُ مَرَاتِبِهِ هِيَ الإِسْلَامُ، وَهُوَ الانْقِيَادُ للَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهُوَ عَلَى قِسْمَينِ:

القِسْمُ الأَوَّلُ: إِسْلَامٌ مَعَهُ إِيمَانٌ، سَوَاءً كَانَ قَلِيلاً أَوْ كَثِيرًا، وَهَذَا إِسْلَامُ المؤْمِنِينَ، وَهُوَ الإِسْلَامُ الصَّحِيحُ الذِي يُثَابُ عَلَيْهِ، وَهُوَ الإِسْلَامُ الذِي مَعَهُ إِيمَانٌ يُصَحِّحُهُ وَلَوْ كَانَ قَلِيلاً؛ وَلِهَذَا قَالَ ﷻ: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوٓا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤]، لَيْسَ مَعْنَى هَذَا أَنَّ هَؤُلَاءِ الأَعْرَابَ مُنَافِقُونَ، لَكِنْ مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ لَمْ يَتَكَامَلْ عِنْدَهُمُ الإِيمَانُ، وَهُمْ ادَّعَوْا مَنْزِلَةً لَمْ يَصِلُوا إِلَيْهَا حِينَمَا قَالُوا: ﴿ءَامَنَّا﴾ فَلَوْ قَالُوا: ﴿أَسْلَمْنَا﴾. لَكَانَ هَذَا هُوَ

التَّعْبِيرَ السَّلِيمَ؛ وَلِهَذَا قَالَ اللهُ: ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا﴾، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ (لَمَّا) للمُسْتَقْبَلِ الَّذِي لَيْسَ مَوْجُودًا الآنَ وَلَكِنَّهُ سَيُوجَدُ، فَاللهُ بَشَّرَهُمْ بِأَنَّ الإِيمَانَ سَيَدْخُلُ فِي قُلُوبِهِمْ فِي المسْتَقْبَلِ، وَيَقْوَى إِيمَانُهُمْ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ، وَلَكِنَّهُمْ اسْتَعْجَلُوا وَقَالُوا: ﴿ءَامَنَّا﴾ فَهُمْ ادَّعَوْا مَنْزِلَةً لَمْ يَصِلُوا إِلَيْهَا؛ فَلِذَلِكَ أَنْكَرَ اللهُ عَلَيْهِمْ، وَبَيَّنَ اللَّائِقَ بِهِمْ، وَأَنَّ الإِنْسَانَ لَا يُكَمِّلُ نَفْسَهُ وَيَدَّعِي شَيْئًا لَمْ يَصِلْ إِلَيْهِ، قَالَ: ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ لَمْ يَقُلْ: لَمْ تُؤْمِنُوا، بَلْ قَالَ: ﴿وَلَمَّا﴾ وَفَرْقٌ بَيْنَ (لَمَّا) وَبَيْنَ (لَمْ)، (لَمْ) لِلنَّفْيِ المطْلَقِ، أَمَّا (لَمَّا) فَهِيَ لِلنَّفْيِ المؤَقَّتِ.

قَالَ: «أَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ» إِلَى آخِرِ الحَدِيثِ، لَـمَّا كَانَ مِنْ جُمْلَةِ أَرْكَانِ الإِيمَانِ: الإِيمَانُ بِاليَوْمِ الآخِرِ، وَهُوَ يَبْدَأُ بِقِيَامِ السَّاعَةِ وَنِهَايَةِ الدُّنْيَا، فَقِيَامُ السَّاعَةِ هُوَ نِهَايَةُ الدُّنْيَا، وَبِدَايَةُ الآخِرَةِ، فَهُوَ الأَجَلُ الذِي ضَرَبَهُ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لِهَذِهِ الحَيَاةِ، يَنْتَهِي ثُمَّ تَقُومُ القِيَامَةُ، وَالإِيمَانُ بِذَلِكَ رُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ الإِيمَانِ، فَمَنْ شَكَّ فِي قِيَامِ السَّاعَةِ، أَوْ تَرَدَّدَ أَوْ جَحَدَ قِيَامَ السَّاعَةِ فَإِنَّهُ كَافِرٌ، قَالَ ﷻ: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧]، وَلَا يَكْفِي أَنَّ الإِنْسَانَ يُؤْمِنُ بِاليَوْمِ الآخِرِ، بَلْ لَابُدَّ أَنْ يَعْمَلَ لِلْيَوْمِ الآخِرِ، فَيَعْمَلُ الصَّالِحَاتِ وَيَتُوبُ مِنَ السَّيِّئَاتِ، وَيَسْتَعِدُّ لِهَذَا اليَوْمِ، هَذَا هُوَ المقْصُودُ، أَمَّا مُجَرَّدُ الإِيمَانِ بِاليَوْمِ الآخِرِ وَلَا يَسْتَعِدُّ وَلَا يَعْمَلُ لَهُ فَإِنَّهُ لَا يَسْتَفِيدُ مِنْ هَذَا الإِيمَانِ، وَقِيَامُ السَّاعَةِ وَتَوْقِيتُهُ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - اسْتَأْثَرَ اللهُ بِعِلْمِهِ، فَلَمْ يُخْبِرْ بِهِ المَلَائِكَةَ، وَلَمْ يُخْبِرْ بِهِ الرُّسُلَ؛ بَلْ إِنَّ اللهَ ﷻ أَخْفَى عِلْمَهُ عَنِ الخَلْقِ؛ لِأَنَّهُ

لَيسَ لِلنَّاسِ مَصْلَحَةٌ فِي مَعْرِفَةِ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ، إِنَّمَا المصْلَحَةُ فِي الإِيمَانِ بِقِيَامِهَا وَالاسْتِعْدَادِ لَهَا، هَذَا هُوَ المقْصُودُ، وَأَمَّا وَقْتُ قِيَامِ السَّاعَةِ فَهَذَا إِلَى اللَّهِ ﷻ قَدْ جَاءَ فِي القُرْآنِ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ بَيَانُ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ وَقْتَ قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا اللهُ، قَالَ ﷻ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقال ﷻ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٢-٤٦]، وَقَالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ [لقمان: ٣٤]، فَعِلْمُ السَّاعَةِ عِنْدَ اللَّهِ ﷻ، وَلَا يَجُوزُ لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ: إِنَّ السَّاعَةَ تَقُومُ فِي وَقْتِ كَذَا وَيَعْتَمِدُ عَلَى حِسَابَاتٍ وَعَلَى خُرَافَاتٍ وَعَلَى أَوْهَامٍ؛ كَمَا يَفْعَلُهُ بَعْضُ المدَجِّلِينَ والمتَنَطِّعِينَ، فَهَذَا مِنَ التَّكَلُّفِ الذِي مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهِ مِنْ سُلْطَانٍ، وَمَنْ يَفْعَلْ هَذَا فَهُوَ كَذَّابٌ؛ لِأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنَّ اللهَ يَحْجُبُ عِلْمَ قِيَامِ السَّاعَةِ وَيَأْتِي أَحَدٌ يَعْرِفُهُ أَبَدًا.

وَلَيْسَ مِنَ الحِكْمَةِ أَنْ تَسْأَلَ عَنْ قِيَامِ السَّاعَةِ، بَلِ الحِكْمَةُ أَنْ تَسْأَلَ عَمَّا تَعْمَلُ، وَكَيْفَ تَسْتَعِدُّ لِهَذَا اليَوْمِ، هَذَا هُوَ الذِي لَكَ فِيهِ مَصْلَحَةٌ؛ وَلِهَذَا لَمَّا قَالَ جِبْرِيلُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: «أَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ» قَالَ ﷺ: «مَا المَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ» أَيْ أَنَا وَأَنْتَ سَوَاءٌ، كُلُّنَا لَا نَعْلَمُ مَتَى قِيَامُ السَّاعَةِ، فَإِذَا كَانَ جِبْرِيلُ عليه السلام وَهُوَ سَيِّدُ الملَائِكَةِ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ وَهُوَ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ لَا يَعْلَمَانِ وَقْتَ قِيَامِ السَّاعَةِ، فَكَيْفَ يَأْتِي مَنْ يَدَّعِي هَذَا؟ فَهَذَا فِيهِ أَنَّ عِلْمَ أَوْ

تَوْقِيتَ قِيَامِ السَّاعَةِ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، «مَا الْمَسْؤولُ عَنْهَا» وَهُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ، «بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ» وَهُوَ جِبْرِيلُ، أَيْ كُلُّنَا سَوَاءٌ لَا نَعْرِفُ هَذَا، وَهَذَا تَصْدِيقٌ لِلقُرْآنِ فِي أَنَّ عِلْمَ السَّاعَةِ إِلَى اللَّهِ ﷻ. وَفِي هَذَا أَنَّ مَنْ سُئِلَ عَنْ شَيْءٍ لَا يَعْلَمُهُ فَإِنَّهُ يَرُدُّهُ إِلَى اللَّهِ وَلَا يَتَخَرَّصُ فِيهِ.

قَالَ: «أَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا» أَيْ عَلَامَاتِهَا، العَلَامَاتُ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى قُرْبِ قِيَامِ السَّاعَةِ مَوْجُودَةٌ، قَالَ ﷻ: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ [مُحمَّد: ١٨]، أَيْ: عَلَامَاتُهَا، الأَشْرَاطُ: يَعْنِي العَلَامَاتُ، قَالَ ﷻ: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ [البَقَرَة: ٢١٠] وَقْتُ قِيَامِ السَّاعَةِ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ.

أَمَّا العَلَامَاتُ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى قُرْبِ قِيَامِ السَّاعَةِ فَهِيَ كَثِيرَةٌ وَمَعْلُومَةٌ، مِنْهَا مَا هُوَ كَبِيرٌ، وَمِنْهَا مَا هُوَ صَغِيرٌ، وَمِنْهَا مُتَوَسِّطٌ، وَقَدْ حَدَثَ الكَثِيرُ مِنْهَا، وَبَقِيَ العَلَامَاتُ الكِبَارُ، وَقَدْ أَلَّفَ العُلَمَاءُ مُؤَلَّفَاتٍ كَثِيرَةً فِي ذِكْرِ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ[1]، وَعَلَامَاتِ قِيَامِ السَّاعَةِ، وَهَذَا عِلْمٌ يُدْرَكُ مِنَ النُّصُوصِ وَالأَدِلَّةِ.

قَالَ: «أَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا» فَلَمَّا كَانَ السُّؤَالُ عَنْ عَلَامَاتِهَا جَائِزًا أَجَابَهُ ﷺ، فَذَكَرَ عَلَامَتَيْنِ: قَالَ: «أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا» هَذِهِ وَاحِدَةٌ، وَمَعْنَى تَلِدَ

---

(١) ومن المصنفات في أشراط الساعة: (صفة أشراط الساعة) للسرخسي، و(القناعة فيما تمس الحاجة من أشراط الساعة) للسخاوي، و(الإذاعة) لصديق حسن خان، و(إتحاف الجماعة فيما ورد في أشراط الساعة) للشيخ حمود التويجري رحمه الله، و(أشراط الساعة) ليوسف عبدالله الوابل، و(القيامة الكبرى) للدكتور عمر سليمان الأشقر.

الأَمَةُ رَبَّتَهَا أَيْ سَيِّدَتَها، ، تَكُونُ الأُمُّ مَسُودَةً وَالبِنْتُ سَيِّدَةً لَهَا، هَذَا مِنَ العَجَائِبِ، أَنَّ البِنْتَ تَكُونُ سَيِّدَةً لِأُمِّهَا، فَمَا مَعْنَى هَذَا؟ ذَكَرُوا مَعْنَيين[1]:

المَعْنَى الأَوَّلُ: أَنَّ مَعْنَاهُ أَنَّهُ يَكْثُرُ التَّسَرِّي فِي آخِرِ الزَّمَانِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ بِنْتَ الأَمَةِ تَكُونُ حُرَّةً تَبَعًا لِأَبِيهَا، فَالبِنْتُ حُرَّةٌ، وَالأُمُّ أَمَةٌ، فَتَكُونُ البِنْتُ سَيِّدَةً لِأُمِّهَا.

المعْنَى الثَّانِي: أَنَّ المرادَ بِذَلِكَ - وَاللهُ أَعْلَمُ - أَنَّهُ يَكْثُرُ العُقُوقُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ حَتَّى كَأَنَّ البِنْتَ تَكُونُ سَيِّدَةً لِأُمِّهَا، بِأَنْ تَتَكَبَّرَ عَلَيْهَا وَتَعُقَّهَا وَتَعْصِيَهَا.

الثَّانِيةُ: قَالَ: «أَنْ تَرَى الحُفَاةَ العُرَاةَ العَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ» يَعْنِي البَادِيَةَ، هَذِهِ صِفَاتُ البَادِيَةِ، حُفَاةٌ أَقْدَامُهُمْ، عُرَاةٌ أَجْسَامُهُمْ بِمَعْنَى أَنَّهُمْ يَلْبَسُونَ ثِيَابًا تَكُونُ مُتَوَاضِعَةً أَوْ ثِيَابًا لَا تَسْتُرُ جَمِيعَ أَبْدَانِهِمْ بِسَبَبِ الفَقْرِ، أَوْ عَدَمِ العِنَايَةِ بِالملابِسِ؛ كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ عَلَى الأَعْرَابِ، لَيْسَ مَعْنَاهُ التَّعَرِّي، وَلَكِنْ مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ لَا يَلْبَسُونَ ثِيَابًا جَمِيلَةً، وَثِيَابًا فَاخِرَةً، إِنَّمَا يَلْبَسُونَ ثِيَابًا مُتَبَذِّلَةً، أَوْ ثِيَابًا قَصِيرَةً، أَوْ عَلَى غَيْرِ الثِّيَابِ المعْرُوفَةِ الَّتِي تُجَمِّلُ الإِنْسَانَ.

قَوْلُهُ: «رِعَاءَ الشَّاءِ» هَذَا عَمَلُهُمْ أَنَّهُمْ رِعَاءٌ يَرْعَوْنَ الشَّاةَ وَالإِبِلَ، وَهَذِهِ

---

(١) اختلف أهل العلم في تفسير هذه الجملة على سبعة أقوال، لخصها الحافظ ابن حجر في الفتح» (١/ ١٢٢، ١٣٣) في أربعة، وارتضى منها واحدًا، فقال: (أن يكثر العقوق في الأولاد، فيعامل الولد أمه معاملة السيد أمته؛ من الإهانة بالسب، والضرب، والاستخدام، فأطلق عليه ربها مجازًا لذلك، أو المراد بالرب المربي فيكون حقيقة، وهذا أوجه الأوجه عندي لعمومه، ولأن المقام يدل على أن المراد حالة تكون مع كونها تدل على فساد الأحوال مستغربة، ومحصله الإشارة إلى أن الساعة يقرب قيامها عند انعكاس الأمور، بحيث يصير المربى مربيًا، والسافل عاليًا، وهو مناسب لقوله في العلامة الأخرى: أن تصير الحفاة ملوك الأرض).

طَبِيعَةُ البَادِيَةِ يَعِيشُونَ عَلَى تَرْبِيَةِ المَوَاشِي هَذِهِ تِجَارَتُهُمْ وَمَعِيشَتُهُمْ، وَيَعِيشُونَ فِي البَرَارِي، وَفِي آخِرِ الزَّمَانِ يَتَحَضَّرُونَ، وَيَسْكُنُونَ الحَاضِرَةَ وَيَبْنُونَ، كَانُوا بِالأَوَّلِ يَسْكُنُونَ فِي الخِيَامِ وَفِي بُيُوتِ الشَّعْرِ، فِي آخِرِ الزَّمَانِ يَتَطَاوَلُونَ فِي المَبَانِي، يَبْنُونَ وَيَتَفَاخَرُونَ فِي المَبَانِي، وَرُبَّمَا يَبْنِي الطَّوَابِقَ الكَثِيرَةَ العَالِيَةَ وَيُنَمِّقُهَا وَيُزَيِّنُهَا وَيُحَسِّنُهَا، وَهُوَ كَانَ فِي الأَصْلِ يَسْكُنُ فِي بَيْتِ شَعْرٍ أَوْ خَيْمَةٍ أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ فَتَحَوَّلَ حَالُهُمْ، هَذَا مِنْ عَلامَاتِ السَّاعَةِ «**يَتَطَاوَلُونَ فِي البُنْيَانِ**»؛ كَمَا هُوَ وَاقِعٌ الآنَ مِصْدَاقًا لِقَوْلِهِ ﷺ، فَإِنَّ أَهْلَ البَادِيَةِ سَكَنُوا المُدُنَ وَصَارُوا يَتَبَاهَوْنَ فِي المَبَانِي، كُلُّ وَاحِدٍ يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ أَحْسَنَ مِنَ الآخَرِ فِي بِنَايَتِهِ، وَمَظْهَرِهَا، وَارْتِفَاعِهَا، فَهَذَا مِنْ عَلَامَاتِ وَمِنْ مُعْجِزَاتِ الرَّسُولِ ﷺ حَيْثُ أَخْبَرَ عَنْ شَيْءٍ وَقَعَ كَمَا أَخْبَرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

قَالَ: «**ثُمَّ انْطَلَقَ**» أَيْ: قَامَ السَّائِلُ وَخَرَجَ، فَخَرَجَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ فِي أَثَرِهِ فَلَمْ يَجِدُوهُ، وَهَذِهِ عَجِيبَةٌ؛ لِأَنَّهُ كَانَ بَيْنَهُمْ وَيَسْأَلُ وَيَتَكَلَّمُ، وَفِي لَحْظَةٍ اخْتَفَى عَنْهُمْ.

قَالَ: «**أَتَدْرُونَ مَنِ السَّائِلُ؟ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: إِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ**» هَذَا فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ المَلَكَ لَا يَأْتِي فِي صُورَتِهِ المَلَكِيَّةِ؛ لِأَنَّ النَّاسَ لَا يُطِيقُونَ رُؤْيَتَهُ عَلَى صُورَتِهِ المَلَكِيَّةِ، وَإِنَّمَا يَأْتِي فِي صُورَةِ إِنْسَانٍ؛ حَتَّى لَا يَنْفُرَ النَّاسُ مِنْهُ، وَغَالِبًا مَا يَأْتِي جِبْرِيلُ النَّبِيَّ ﷺ فِي صُورَةِ رَجُلٍ وَعِنْدَهُ أَصْحَابُهُ[1]؛ كَسَائِرِ السَّائِلِينَ وَالطُّلَّابِ لَا يَتَمَيَّزُ عَنْهُمْ؛ لِأَجْلِ أَنْ لَا يَنْفِرُوا.

---

(١) جاء في بعض الروايات أن جبريل عليه السلام يأتي النبي ﷺ في صورة دحية الكلبي، أخرج هذه الرواية النسائي في الكبرى (٦/ ٥٢٨)، وفي المجتبى (٨/ ١٠١، ١٠٢)، وابن راهويه في مسنده (١/ ٢٠٩، ٢١٠) من حديث أبي هريرة وأبي ذر رضي الله عنهما، يُراجع: الدر المنثور (٧/ ٦٤٦) حيث =

وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الملائِكَةَ تَتَشَكَّلُ بِأَشْكَالٍ حَسَبَ المصْلَحَةِ، وَقَدْ أَعْطَاهُمُ اللهُ القُدْرَةَ عَلَى ذَلِكَ؛ لِأَجْلِ مَصْلَحَةِ البَشَرِ. وَالنَّاسُ لَا يَرَوْنَ المَلائِكَةَ إِلَّا عِنْدَ العَذَابِ - وَالعِيَاذُ بِاللَّهِ - وَكَذَلِكَ عِنْدَ المَوْتِ تَظْهَرُ المَلائِكَةُ وَيَرَاهُمُ المحْتَضِرُ، قَالَ ﷻ: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٢٢]، أَمَّا قَبْلَ ذَلِكَ فَالنَّاسُ يَرَوْنَهُمْ فِي صُوَرٍ لَا تَخْتَلِفُ عَنْ صُوَرِ النَّاسِ.

لَكِنْ لِمَاذَا جَاءَ جِبْرِيلُ؟ وَلِمَاذَا جَلَسَ؟ الجَوَابُ عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»، فَهُوَ لَا يَسْأَلُ لِيَتَعَلَّمَ، وَإِنَّمَا يَسْأَلُ لِيُعَلِّمَ، فَهَذَا فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ السُّؤَالَ وَالجَوَابَ مِنْ طُرُقِ التَّعْلِيمِ، بَلْ مِنْ أَبْلَغِ طُرُقِ التَّعْلِيمِ أَنْ يَكُونَ عَنْ طَرِيقِ السُّؤَالِ وَالجَوَابِ، وَهِيَ طَرِيقَةٌ تَرْبَوِيَّةٌ جَيِّدَةٌ مَعْرُوفَةٌ.

قَوْلُهُ: «يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ» فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الدِّينَ يُؤْخَذُ بِالتَّعَلُّمِ، لَا يُؤْخَذُ مِنَ العَادَاتِ وَالتَّقَالِيدِ وَالبِدَعِ وَالمحْدَثَاتِ، وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الدِّينَ يَتَكَوَّنُ مِنْ ثَلَاثِ مَرَاتِبَ، بَعْضُهَا أَفْضَلُ مِنْ بَعْضٍ:

- **المَرْتَبَةُ الأُولَى**: الإِسْلَامُ وَأَرْكَانُهُ خَمْسَةٌ.
- **المَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ فَوْقَهَا**: الإِيمَانُ وَأَرْكَانُهُ سِتَّةٌ.
- **المَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ ـ وَهِيَ أَعْلَاهَا**: الإِحْسَانُ وَهُوَ رُكْنٌ وَاحِدٌ، «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ».

وَفِي هَذَا الحَثُّ عَلَى تَعَلُّمِ الدِّينِ، وَأَنَّ المسْلِمَ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَعَلَّمَ دِينَهُ،

=

قال النبي ﷺ: «وَأَكْثَرُ مَا كُنْتُ أَرَاهُ عَلَى صُورَةِ دِحْيَةَ الْكَلْبِيِّ».

لَا يَكْتَفِي أَنْ يَقُولَ: أَنَا مُسْلِمٌ، لَابُدَّ أَنْ يَتَعَلَّمَ مَا هُوَ الإِسْلامُ؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُؤَدِّيَهُ عَلَى الوَجْهِ المطْلُوبِ، فَلَا يَكْفِي أَنْ يَنْتَسِبَ الإِنْسَانُ إِلَى الإِسْلَامِ وَهُوَ لَا يَعْرِفُ عَنْهُ شَيْئًا، وَلَوْ سُئِلَ عَنِ الإِسْلَامِ لَقَالَ: أَنَا مُسْلِمٌ وَلَكِنْ لَا أَدْرِي مَا هُوَ الإِسْلَامُ. وَهَذَا مِنَ العَجَائِبِ، كَيْفَ يَكُونَ مُسْلِمًا وَهُوَ لَا يَدْرِي مَا هُوَ الإِسْلَامُ؟ هَذِهِ مُشْكِلَةٌ، فَقَدْ يَقَعُ فِي شَيْءٍ يُخَالِفُ الإِسْلَامَ وَهُوَ لَا يَدْرِي، أَوْ يَتْرُكَ شَيْئًا يُخِلُّ بِالإِسْلَامِ وَهُوَ لَا يَدْرِي، أَوْ يَفْعَلُ شَيْئًا يَتَنَافَى مَعَ الإِسْلَامِ وَهُوَ لَا يَدْرِي؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَتَعَلَّمِ الإِسْلَامَ.

فَهَذَا فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى وُجُوبِ تَعَلُّمِ الدِّينِ بِمَرَاتِبِهِ: الإِسْلَامِ والإِيمَانِ وَالإِحْسَانِ.

وَصَلَّى اللهُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.

* * *

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

